تحرير العقل وتثبيت التوحيد

في

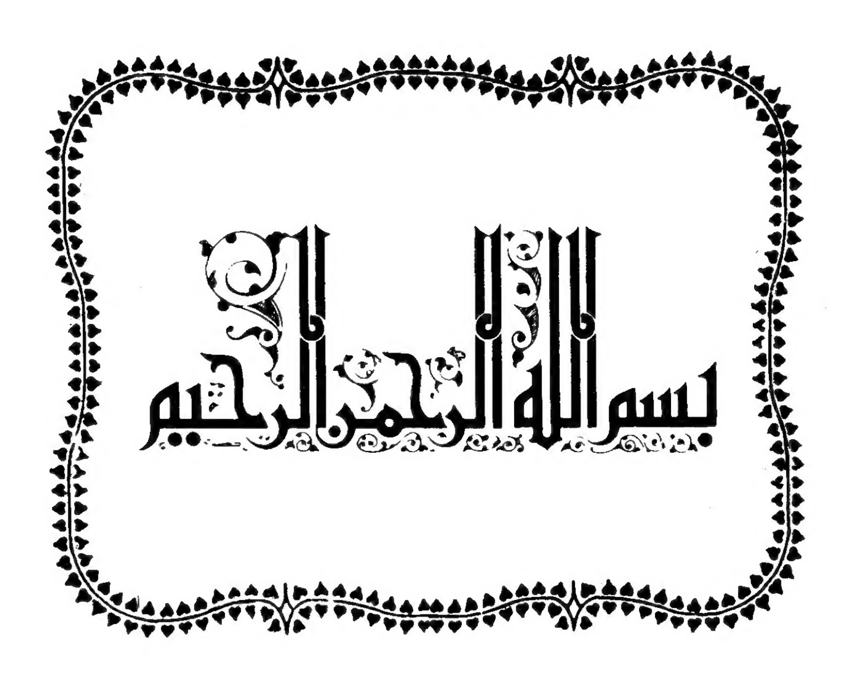
ضوء الكتاب والسنة

تأليف

د. أحمد فال ولد محمد

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

تحرير العقل وتثبيت التوحيد

في

ضوء الكتاب والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه الكريم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي عمّ برحمته جميع العباد ، وخص أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرشاد، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال، نحمده سبحانه الذي بين لنا بمحض فضله شريعة الإسلام في كتابه العزيز، وبيّن لنا ما خفي من معانيه الجمة بصحيح حديث خير الأنام، فأظهر لنا ما أودع الله في كتابه من الودائع من خفايا الأسرار، ومكامن الأنوار رضي بالإسلام دينا ، وفرض الاستسلام له إيماناً ويقينا ، ووفق من شاء من عباده لإبراز الحق وإبدائه والكشف عن مكنون عقود اللآليء بعد خفائه، نحمده حمداً يوافي ما تزايد من نعمه منور الأنوار ومظهر عجائب الأسرار، وواهب السمع والبصر والفؤاد، الذي أبدع بقدرته افلاكاً دائرة، وزينها بنجوم ثابتة وسائرة ، وجعل منها الشمس ضياء والقمر نوراً وقدر كل شيء بحكمته تقديراً، لا غنى إلا في الافتقار إليه ، ولا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قربه، ولا صلاح للقلب ولا فلاح له إلا في الإخلاص له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة قامت بها الأرض والسموات ، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، لأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار فهي منشأ الحق والأمر، والثواب والعقاب، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة وأسست الملة، وجردت

السيوف للجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي حكمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام، وعنها يسأل الأولون والآخرون، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه المبعوث بالدين القويم، والمنهج المستقيم ارسله الله رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وحجة على الخلائق أجمعين، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطريق، وأوضح السبيل،وافترض على العباد طاعته، وتعزيزه، وتوقيره، ومحبته، وسدّ دون الجنة الطريق فلن تفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذّلة والهوان على من خالف أمره، ففي المسند من حديث أبي منيب الجرشي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم» . وكما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره، فالعزة لأهل طاعته ومتابعته، قال تعالى : ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾ وقال تعالى : ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ وقال جل ذكره : ﴿**فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم**﴾ وقال أيضاً : ﴿**يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ . إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى لكثرتها في هذا المجال .

هذا وبعد أن منّ الله الحليم المنان علي بالدخول في تأليف هذا الكتاب الذي جعلته بعنوان : (**تحرير العقل وتثبيت التوحيد في ضوء الكتاب والسنة**) وقد لاحظت فيه أن مجال التأليف يجب أن يتأثر بما يجري في العالم الإسلامي من عادات وأخلاق وحتى يتنبه القارىء إلى مهمة المشاركة في التوحيد لاسيما في هذا الوقت الذي سيطرت فيه العادات والتقاليد الواهية على أغلب العبادات، وبعُد الناس عن الأصلين العظيمين . اللذين هما المصدر الأول والثاني للتشريع (الكتاب والسنة) في مقابلة هذا التيار ، أحببت أن

يكـون هذا الكتـاب يحمـل تليمحـات وإشارات توقـظ العقـل السليم المدرك إلى ما هو سائد في الناس اليوم من الجمـود على العـادات والتقاليـد الواهيـة التـي لا أصل لها سوى أنها متداولـة بين العامـة والخاصة، قلــد فيها الصغــار الكبــار فأصبحت كأنها نص محكم لا يجوز العدول عنه .

هذا ومعلـوم أن المجتمـع الإسلامـي يدعــوا إلى ما يدعــوا له الإسلام، حريـة الفـرد، والمساواة بين النـاس، وهـو في حقيقتـه وجوهـره مجتمـع حر غير طبقي وإنعـدام الطبقيـة فيـه ليس على أساس نظريـة اقتصاديـة أو نظريـة ماديـة، وإنما على أساس أشمل وأوسع، أساس شريعــة الإيخاء والمساواة بين النــــاس ورفض الاعتـراف بامتيـاز أو فضل إلا من خلال التقـوى، والعمـل لخير الفـرد والجماعة، والامتثال لشريعة الله القائمة على مبادىء العدل وعدم الطبقية .

فالإسلام عقيـدة وشريعـة، وهـو : ديـن وثقافـة واسلـوب حيـاة هو أمـة ودولة لها شريعتها المتكاملـة والمتطـورة لتـدبير شئـون هذه الدنيـا والتجـاوب مع حاجات الإنسان لكي يحيا حياة إنسانيـة كريمة خاضعـة لسيـادة الخالـق وحـده، هذا وبعـد أن عبـد النـاس قوى كثيرة، إمـا عبـادة أصليـة، وإمـا لإتخاذ عبـادتها زلفى، وتقربا إلى تلك القوة العظمى القاهـرة التـي يدركـونها بفطـرتهم، عبـدوا الأشبـاح، والأرواح والجمـادات، والحيوانـات، والنجــوم إلى غير هذا، ومــا توهموا أن فيه القوة أو أنه مثل لها أو مظهر من مظاهرها، بل عبـد بعض النـاس بعضاً مما تجلت فيـه قوة غير طبيعيـة، وإذا نظرنـا في تاريخ أديـان البشر وجدنـا الشرك في الغالب نتيجـة لبـدع احدثهـا النـاس، فعـددوا الآلهة ونوعوهـا، وأقـام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قوامـا على الآلهة ، وسدنـة وحـراسا، بل وكـلاء، ونوابــا واتخذوا سلطـــان هذه الآلهة سلطانــــا لهم، ثم تآمر ذوو الأغــــراض فتسانـدوا على تضليـل العامـة، وانتهوا بوضعهـم في أسر مجموعـة من الخرافـات، فأول أثـر يبـدو للشرك في تاريخ البشر هو أن العبوديـة لله انقلبـت إلى العبوديـة للصنم ثم انقلبت إلى عبودية للشخص أو الأشخـاص القائـمين على هذا الصنـم، ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال فإن الشرك والاستبداد حليفان متلازمان، أما

التوحيد فيتبعه الإنصاف ويلازمه ملازمة تامة، والإيمان الخالص من الشوائب الصادر من القلب تتبعه حتما جميع الفضائل المتعارف عليها، والقرآن يفصل ذلك ويبينه أحسن تبيين، والسنة توضحه وتقوم بمهمة التبليغ، وقد شهد الله لنبيه عليه الصلاة والسلام، بالتبليغ فقال جل وعلا : **﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾** ، وقد أمرنا الرسول أن نبلغ عنه ما سمعناه فقال : «بلغوا عني ولو آية فرب مبلغ أوعى من سامع» وهنا تظهر مهمة العالم والمتعلم والباحث، فأن كل واحد عليه من المهمة بحسب ما حمله من علم مسؤول عن إيصاله إلى القاصرين عن هذا المستوى، ومن خلال ما أشرت إليه في هذه المقدمة مجتمعا ومفترقا من مضار العادة والعرف الخاطئين وقوة سلطانهما إذا تحكما في تفكير الإنسان وعمله رأيت من الصواب أن يكون موضوع هذا الكتاب :

«تحرير العقل وتثبيت التوحيد في ضوء الكتاب والسنة»

ولعل ما سنتعرض له يصادف قلباً خالياً من الشوائب فيتمكن أسلوب القرآن من استقاظ فطرة الله التي فطر الناس عليها، قبل أن ينسيها الشيطان ويبعدها الأمد عن المهمة التي خلقت من أجلها **﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾** وقد اتبعت في هذا الكتاب الخطة التالية :

جعلت في الفصل الأول : «تحرير العقل وتثبيت التوحيد» وبحثت النقاط الرئيسية التي عنَّت لِتَوُّهَا في هذا الفصل، عرفت العقل وقلت : أنه من النعم الكبار التي أعطى الله للعبد، والدليل على ذلك ان العبد لا يخاطب بفروع ولا أصول إلا إذا كان عاقلا، وهذا محل إتفاق (فإذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب) ولفظ العقل ومشتقاته ورد في القرآن أكثر من أربعين مرة، ولا خلاف بين المسلمين وغير المسلمين أنه من المزايا العظام، والقرآن الكريم لم يذكر العقل إلا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة باللفظ والدلالة والتكرار في كل

معرض من معارض الأمر والنهي التي يُحَثُّ فيها المؤمن على تحكيم العقل، أو يُلاَمُ المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه، وبعد هذه النبذة عن الموضوع الأول : «تحرير العقل» .

إنتقلت إلى الموضوع لثاني الذي هو : **(التقليد)** لكونه هو العائق الأول الذي يحول بين العاقل والتفكير وإمعان النظر فيما يواجهه، وقد عرفته لغة وشرعاً، وقلت أنه اتباع القول من غير معرفة دليله، وأن من ظهر له الدليل ومشى معه يكون متبعا لا مقلدا، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، وان كل مسلم مطلوب منه تحكيم الكتاب والسنة والأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة كل واحد منهم رضوان الله عليهم أوصى بأن قوله إذا خالف الكتاب أو السنة لا يعتد به ولا يلتفت إليه ولا يعمل به، وقلت في هذا الموضوع : أن اسم المذاهب لا يتناول مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض وذلك أمر لا نزاع فيه لإجماع العلماء على أن المجتهد إذا قام باجتهاده دليلا مخالفاً لنص من كتاب أو سنة أو إجماع أن دليله باطل بلا خلاف، وأنه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الاعتبار، وقد أوردت أدلة المقلدين وبينت حجج المانعين والمجيزين، وذكرت أقسامه وان منه ماهو جائز وتتبعت الخلافات وبينت الراجح منها والذي يشهد له الدليل، وبعد توضيح هذا الموضوع خلصت إلى الموضوع الأخر : **«تأثير البيئة على العقل»** .

لكونه له مساس بعدم تحكيم العقل، والبيئة وما يحدث فيها تحدد اتجاه الانسان ، وقد يظل أسيرها، وتأثير البيئة على الناس مشاهد في سلوك الناس، وتحكم العادة وقوة سلطانها، وقد برهنت على هذا الموضوع بقصة رجل بني اسرائيل الثابتة في الصحيحين والذي قتل مائة نفس وقلت أن العالم أرشده إلى قرية أهلها صالحون، ونصحه بمغادرة القرية التي كان يسكنها وتلبس فيها بهذه الجرائم، لأنها قرية سوء، ووجوب الهجرة في بدء الإسلام من هذا القبيل وإن كان تكثير سواد المسلمين والفرار بالدين خوفا من الافتنان والاكراه على الكفر هما السببان الرئيسيان، ولكن الجو الصالح والجليس

الصالح لا شك في أن الله ينفع بهما ، والبيئة لها ما تفرضه من قوة على نظم المجتمع وخاصة شئون التشريع والعادات والتقاليد، ونظم الاقتصاد والمستوى الحضاري والنزوع إلى الحرب أو السلم ، ونسب إلى البيئة الجغرافية الفضل في تثبيت دعائم الحكم في المدن القديمة، وقد احتمل موضوع البيئة مكان الصدارة في المناقشات التي اثيرت حول العوامل المؤثرة في حياة المجتمعات ، وذكرت في هذا الموضوع أن من الناس من يذهب إلى أن التباين بين أمة وأخرى سواء في التفكير أم في شئون الاجتماع يرجع إلى ما خضعت له كل أمة من مؤثرات البيئة، واتجهتُ بعد هذا الموضوع إلى موضوع آخر هو :

« الإرهاب الفكري »

وذكرت في هذا الموضوع عدة نقاط : منها أن مجال الدراسة الذي يعرف باسم التاريخ الفكري ليس أمراً محدود الجوانب، فقد يندرج تحت هذا العنوان مدى فسيح من الموضوعات الفعلية من آثار الفلاسفة المعنيين في التجديد إلى التعبير عن الخرافات الشائعة مثل التشاؤم الشديد من العدد ١٣ ، وقلت : أن مؤرخوا الفكر تعرضوا لأفكار الفلاسفة كما تعرضوا للآراء التي يعتنقها رجال الشارع، ومهمتهم الأساسية محاولة «التعرف على العلاقات بين آراء الفلاسفة والمثقفين، والمفكرين، وطريقة العيش الواقعية للملايين الذين يحملون على عواتقهم واجبات المدنية .

ومؤرخوا الفكر تهمه الأفكار أنى وجدوها سواء كانت أفكارا همجية أم معقولة تأملا دقيقاً أم تحيزاً عاماً، ولكن يهتم بهذه الثمار من نشاط الإنسان العقلي، ومن حيث تأثيرها في وجود الإنسان كله، أو تأثرها بهذا الوجود، وقلت: ان قصة موسى عليه السلام تمثل الموضوع خير تمثيل، وهي : متناثرة في القرآن العظيم، ووردت في كثير من السور، وقد بينت هذه السور وعينتها وذكرت موضوع كل سورة بما يكفي عن ذكره هنا، وهكذا كفاني ما في هذه القصة من الإرهاب المتمثل في فرعون وملائه، والذي مارسه في بني اسرائيل ما همني في هذا الموضوع .

وأتبعت هذا الموضوع بموضوع الآيات الأرضية : وبينت هنا شبهة منكري البعث، والحشر والنشر ورددت على هذه الشبهة، وتعرضت لتفسير بعض الآيات، وما جرِ اليه البحث مما له علاقة من قريب أو بعيد بهذا الموضوع وتطرقت إلى دوران الأرض وعدمه وأوردت آراء العلماء المعاصرين والذين تعرضوا لهذا الموضوع حين قامت زوبعته، وختمت كلامي بأن كثيراً من الناس يرى أن دورانها يعتبر اليوم من الضروريات المعلومة التي لا يجادل فيها إلا قاصر قصورا مخلا، بينما يرى البعض الآخر أن اعتقاد دورانها وثبوت الشمس كفر بواح مخالف للكتاب والسنة .

وبعد هذا انتقلت إلى فصل آخر هو : إنكار الوحدانية وعبادة الأصنام وإحلال التوحيد محل هذا، وتعرضت في هذا الفصل لشروط قبول العمل وبينت أنها منحصرة في أن يراد به وجه الله وأن يكون خالصا له سبحانه، وأن يوافق الشرع، واتيت بما يشهد لهذا من الكتاب والسنة ومن ضمن الأدلة قوله ﷺ : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» أي مردود عليه ذلك العمل لا يقبل بسبب ما أحدث فيه، فالطريق واضحة ومضاءة بالكتاب والسنة، وكذلك جعلت من ضمن الأدلة حديث : «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك» وبينت في هذا المكان أقسام التوحيد الثلاثة الربوبية ــ الألوهية ــ والأسماء والصفات ، بطريقة موجزة، ووجوب الطاعة لله وحده، وشرحت الأيات الواردة في هذا المجال والأحاديث المتعلقة به، وفي خلاصة هذا البحث، قلت : أن الذين وقع بينهم بعض الخلافات سواء في أسماء الله أو صفاته أو أفعاله متفقون على تنزيهه سبحانه وإن إختلفت الأفهام، فالمقصد واحد وهو تنزيهه عن النقاص، فمن أنكر بعض الأسماء أو الصفات فذلك فراراً من التشبيه، ومن أثبتها فذلك فراراً من التعطيل، وفي الفقرات التالية من هذا الكتاب تعرضت لبعض العادات التي كان أهل الجاهلية يتعاطونها وأبطلها الإسلام وأمر بنبذها وحذر منها ، ومن تلك العادات البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، ووأد البنات، والجمع بين الأخوات، والزواج بالأمهات، كما أن الربا، وشرب

الخمر داخلان في هذه العادات، وقد نهى الله عن هذا كله في محكم كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ الذي شهد له بالتبليغ في قوله : **﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾** وقد نص القرآن على تحريم هذه الأشياء قال تعالى : **﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾** وقال في شأن الوأد : **﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾** وقال في شأن الأخوات **﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف﴾** وقال أيضاً في شأن الأمهات : **﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾** وأما الربا فإنه كان متفشيا فيهم فليحذر الذين يهونون من شأنه ويتعاطونه : **﴿ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة﴾** .

أما النقطة الأخيرة من هذه العادات فهي الخمر ويكفي في الزجر عنه قوله : **﴿فهل أنتم منتهون﴾** فمن لم ينته فإنه سوف يقف بين يدي الله بدون حجة وعندئذ يكون الشراب طينة الخبال، والندم كثير والوقت طويل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ .

وفي فقرات الكتاب الأخيرة تعرضت لموضوعات شتى :

الموضوع الأول : ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة من رد الأوقاف ومنع الأحباس استنتاجا من قوله تعالى : **﴿ما جعل الله من بحيرة﴾** وقلت : أن لا مناص من نسبة هذا القول إليه حسبما رأيت .

الموضوع الثاني : النذر ، وقلت أن الوفاء به واجب إذا كان المنذور جائزا، وان العلماء لا يحببون النذر لكونه «إنما يستخرج به من البخيل» وبحثت الخلاف فيه، وما يجب فيه الوفاء ومالا يجب استنتاجا من استفسار الرسول ﷺ للذين نذروا، وقلت أن العلماء لم يحرموا النذر لكون الله مدح الوافين به في قوله تعالى : **﴿يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾** .

هذا وقد رجعت في هذا الكتاب إلى كثير من أمهات الكتب المتداولة اليوم من كتب التفسير والحديث، والأصول، والفقه، والتاريخ ، والسير وعلم الاجتماع، وعلم الفلك، وقد تركت كثيرا من الكتب التي رجعت اليها لم نثبتها في قائمة المراجع وذلك لسببين :

الأول : أن الأقوال كثيراً ما تكون متحدة فنعتمد احدها ونترك الباقي .

ثانياً : عدم تكرار الرجوع اليها والأخذ منها، وهكذا كان سيرى في هذا الكتاب على النحو الذي بينت، والله المستعان والهادي إلى سبيل الرشاد .

هذا وبعد المقدمة التي بينت فيها سبب اختياري لهذا الموضوع وطريقة بحثي له، والنقاط التي تعرضت لها حان الوقت للرجوع إلى الكتاب، والالتحام مع صلب الموضوع بادئاً بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تحرير العقل وخصائصه

العقل الحجر والنهي ضد الحمق، والجمع : عقول ، وعقل يعقل عقالا ـ ومعقولا . وهو : مصدر، وقال سيبويه هو : صفة ، وكان يقول : أن المصدر لا يأتي عن وزن مفعول البتة ويتأول المفعول فيقول : كأنه عقل له شيء أي : حبس عليه عقله وأيد وسدد، وقال : ويستغني بهذا عن المفعل الذي يكون مصدراً، وعقل فهو عاقل وعقول من قوم عقلاء، قال ابن الانباري : رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل : الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها أخذ من قوله : قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع عن الكلام، ووالمعقول ما تعقله بقلبك والمعقول القلب يقال ما له قلب : أي : عقل وهو أحد المصادر التي جاءت على مفعول كالميسور . والمعسور، وعاقله فعقله يعقله بالضم كان اعقل منه، والعقل : التثبت في الأمور ـ وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، وقيل العقل : هو التمييز الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان ـ ويقال لفلان قلب عقول ولسان سؤول ـ وقلب عقول فهيم «وعقل الشيء يعقله عقلاً» : فهمه، ويقال : اعتقلت فلانا، أي الفيته عاقلا، وعقلته صيرته عاقلا، وتعقل تكلف العقل كما يقال : تحكم ، وتكيس ـ وتعاقل أظهر أنه عاقل ـ فهم وليس بذلك[1]، وفي حديث الزبرقان : أحب صبياننا الينا الأبله العقول . وعقل الدواء بطنه يعقله ويعقله أمسكه وقيل

---

(١) لسان العرب ١١/٤٥٨

أمسكه بعد استطلاقه، ومما سبق تبين من معان العقل في اللغة : الحجر. كأن أول خاصية من خصائص العقل ، هي المنع والكف لا عن كل شيء بل عن بعض الأشياء فقط ويأتي هنا دور الشارع فيحدد ما يجب على العقل أن يمتنع عنه وما يجب عليه أن يقوم به وما يخير في فعله أو تركه .

فهو النهي كما قال سبحانه : ﴿ان في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [1] وضد العقل الحمق، وهو : التصرف من غير ضابط يضبط ما يمتنع عنه وما يفعله، والعقل قد يصاب بآفة فيختل ويضطرب كما هو الشأن فيمن أضلهم الله كما قال سبحانه : **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولـئك كالأنعام بل هم أضل أولـئك هم الغافلون﴾** [2]

أقول وبالله التوفيق : الإنسان مسؤول عن تحكيم عقله في كل أموره العاجلة والآجلة والقرآن الكريم الذي هو الهداية الواضحة خاطب العقل وأمر أصحاب العقول بالتفكير والاعتبار — كما أن الدين الإسلامي يدعو في نصوص الكتاب والسنة أهل العقول السليمة إلى الاعتبار والتفكير والتدبر — واختلفوا في العقل هل هو مصدر أو صفة، فإذا لاحظنا المصدرية فهو مرجع للإنسان فيما يسلكه، وإذا لاحظنا الوصفية فعند زواله تسقط التبعة والمسؤولية فيمن زال عنه عقله ، وهذا موضع اتفاق، فإذا أخذ ما وهب، اسقط ما أوجب، والعقل يتفاوت في أهله فمنهم العاقل ومنهم العقول، والزيادة المسرفة في جهة من العقل يأتي من النقص المتحيف إلى جهة أخرى وأنه رب عقل كان تاما عبقريا في أمور إلا أنه ضعيف أبله في أمور أخرى،[3] والقدر الذي

---

(١) سورة طه : آية «٥٣» .

(٢) سورة الأعراف : آية «١٧٩» .

(٣) صحاح البخاري : ١٣٤٧/٤ .

يتعلق به التكليف هو التمييز والقدرة على التفريق بين الضار والنافع، وقدمنا قول ابن الأنباري : أن الرجل العاقل هو : الجامع لأمره ورأيه كأن من خصائص العقل الجمع بين المتماثلات والتفريق بين المختلفات ولابد للعاقل من رأي مستقل يستخلصه مما يجري حوله ، وإلا كان صاحبه إمعةً يقول : أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساؤوا أسأت .

وقد أرشد الإسلام كل عاقل أن يوطن نفسه باستقلال الرأي فإن أحسن الناس أحسن وإن أساؤا أجتنب إساءتهم، وقد أخذ هذا من قولهم : عقلت البعير إذا جمعت قوائمه كأن الإنسان بغير عقله يشرد كما تشرد الإبل وتجمع قوائمه بعقله متى عقل . وهذا يرجع إلى أن النفس تريد أن تكون مطلقة فيقيدها العقل — ولكل غريزة في الانسان شعور لا مهنأ لها إلا أن يكون هذا الشعور حراً حتى في التوهم فكان العقل فاصل بين ما هو حقيقة وما هو خيال .

فهو إذاً يحبس ما ينبغي أن يحبس ويطلق ما ينبغي أن يترك حراً طليقاً، ويخيل إليّ أن اللغة فرقت بين العقل والقلب كالتفريق بين الفاعل والمفعول ، فالعقل يقوم به التعقل والقلب معقول فإن المعقول يطلق في اللغة إما على نفس القلب أو ما يعقله القلب ، وعلى هذا يكون القلب في اللغة أداة من أدوات التعقل ويمكن أن يسعفنا القرآن في هذا المسلك كما قال سبحانه : **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾** [1] وقوله : **﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾** وبهذه المعاني كلاً مجتمعة ومتفرقة يؤخذ من ضمنها أن العقل الإنساني مدعو إلى التفتح والنمو، والتحرك حين يتعد عن الخرافات والأباطيل ويتمكن من النظر في هذا الكون وما حوله فيدرك الحق ويتمتع بنور الله وهدايته وتنكشف له أسرار ذلك .

---

(١) سورة الحج : آية «٤٦» .

ان الإنسان بفطرته السليمة محمول على اتخاذ عقائد لدينه يطمئن لها ويهتدي بنورها، ولكن كثيراً من المتدينين إنحرفوا عن الفطرة السليمة واتبعوا أهواءهم وما لوا مع شهواتهم وقلدوا أباءهم وقادة أديانهم بدون نقد ولا تمحيص فضلوا وأضلوا حتى جاء الإسلام فأراد أن يرجع الفطرة إلى أهلها فحرم على أهله هذا الضرب من العقائد الزائفة وشرط أن يكون أساسها العقل ومستندها الدليل. وحكم العقل مظهر من مظاهر السلوك الإنساني ولأجل أن يرفع طريقة العقل الخاص على ما يعترضه من العوائد الواهية أنحا بالأئمة على مبدأ التقليد فنقضه وعلى أصل التقديس القديم فهدمه ونص على الواقفين مع هاتين العقبتين فقال جل ذكره : ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون**﴾[1]، وهذا الاتجاه في الاعتماد على العقل لا عهد للإنسانية به إلا في العلوم الكونية فليس على المسلم بموجب الأصل الإسلامي أن يتناول عقيدة بدون أن يحكم عقله فيها ويدلل عليها ، حتى ساغ لأصحاب الأصول من المسلمين أن يفرضوا أن إيمان المقلد لا يقبل منه ، لأن العقل من صفاته التمييز بين الحق والباطل، والحسن والقبيح والخير والشر — كما أحاطوا التكليف في جميع الفروع الشرعية بالعقل فإذا تعطل فلا تكليف .

ولهذا وصف — الإسلام بأنه دين الفطرة إذ هو يتماشى مع النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق كامل فهو يساير مقومات الإنسان الجسمية والعقلية في آن واحد بل يعمل على تقويتها وبروزها حتى تقوم بواجبها الفطري، فلا يعطل غريزة ولا يقف سداً أمام طاقات الفطرة بل يقوى فيها نوازع الخير ويكشف عما في الحياة من نفع وضر وبذلك امتاز على غيره من الأديان لأنه دين العدل بين مطلب الروح ومطالب الجسد، فهو لا يأمر الآخذ

---

(١) سورة المائدة : آية «١٠٤» .

به أن يحرم نفسه من متعة مادية ومن لذة جسدية مادام يتناولها عن طريقها المشروع وبحدها المعتدل حتى أن أكثر الآيات القرآنية التي تحض على نيل منزلة روحانية تحض في آن واحد على نيل مكانة مادية .

يقول الله سبحانه وتعالى : **﴿وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله إليك﴾** [1] فإن انحرفت النفوس عن الفطرة عمل هذا الدين بتشريعاته الجارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به ليرجع تلك النفوس الضالة إلى حظيرة الفطرة السليمة ويهدي إلى إتباع الطريق المستقيم .

قال تعالى : **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [2].

والفطرة المرادة هي قوله تعالى : **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** [3]

هي كما قال ابن عاشور : [4] الحالة التي خلق الله عليها عقل النوع الإنساني سالما من الاختلاط بالعادات الفاسدة، والأوهام، والأباطيل، صالحا لصدور الفضائل عنه كما شهد به قوله تعالى : **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** فالتقويم المراد به في هذه الآية إنما هو تقويم العقل الذي هو مصدر العقائد

---

(١) سورة القصص : آية ٧٧

(٢) سورة الروم : آية ٣٠

(٣) سورة الروم : آية ٣٩

(٤) الفكر الإسلامي : ٢٨٩

الحقة والأعمال الصالحة وأن المراد برده أسفل سافلين، إنتقال الناس إلى إكتساب الرذائل بالعقائد الباطلة والأعمال الذميمة، وإذا كان العقل السليم هو طريق الاهتداء إلى المنهج الصحيح بإدراك معنى الخير والشر والباطل، ويتضح بوضوح أن العقل في مقدمة النعم الكبار التي أنعم الله على عباده بها لأنه به يتم التكليف ولا يكون بدونه ، وبه يعرف الباري جل وعلا ويتوجه خطابه الينا بما فيه من الآيات والأوامر والنواهي، وقد اعتبر القرآن الكريم العقل ونبه على ضرورة التفكر والتبصر ولفظ العقل ومشتقاته وردت في القرآن أكثر من أربعين مرة .

يقول العقاد[1]: لا خلاف بين المسلمين وغير المسلمين ان من المزايا العظام مزية العقل والتنويه عليه في أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف مع كتب الأديان الكبرى إشارة صريحة إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة وقد يلمح فيها القاريء بعض الأحايين شيئاً من الزراية[2] بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار ، ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم — والتنبيه إلى وجوب العمل والرجوع إليه ولا تأتي الإشارة إليه عارضة — ولا مقتضبة في سياق الآية بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة والتكرر في كل معرض من معارض الأمر — والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم العقل أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل لمعنى واحد — من معانيه التي شرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة [3] بل هي تشمل وظائف الإنسان

---

(١) التفكير فريضة إسلامية : ص ٨١٧

(٢) الزراية : رزي عليه فعله : عابه وحقره صحاح الجوهري ٢٣٦٨/٦

(٣) التفكير فريضة إسلامية : ص ٧ — ٨

العقلية على إختلاف أعمالها وخصائصها وتعتمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ـــ ولا في العقل المدرك ـــ ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل عم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة وهي كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام إذ هي جميعاً مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك ـــ والعقل المفكر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء .

أقول وبالله التوفيق : العقل، نور جعله الله في القلب يميز العبد به بين النافع والضار، والحسن والقبيح وهو زمام الإنسان الوحيد الذي يمسكه عن اقتحام المهالك القولية والفعلية وقد تعرض العلماء لمكان العقل فبعضهم يقول أنه في القلب كما قدمت بينما يرى البعض الآخر أنه في الدماغ وكل واحد يؤيد قوله بما يرى من الأدلة المقوية لجانبه والذي أراه شخصيا مع الاعتراف بالقصور أن العقل : نور ـــ جعله الله في القلب وله أشعة ممتدة إلى الدماغ والإنسان خلقه الله مترابط الاجزاء محكم الأعضاء . نجد من يصاب في عقله لا يحسن تصرفا ولا تؤكل اليه الأمور . بينما نجد من أصيب في دماغه في حالة عدم وعي تامة مع أننا نجد المكفوف يمشي في الشوارع والممرات الضيقة وحده بدون قائد، وهذا يدلنا على أن النور في القلب يرى به صاحبه مالا يرى من أصيب في قلبه . فهذا المصاب في قلبه أو دماغه نجده يصطدم بالجدران ولا يستطيع الاهتداء إلى شيء . هذا بالاضافة إلى أن بعض العلماء يقول أن القلب هو : العقل .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره [1] لقول الله عز وجل : ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ [2] حدثني

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري : ٩٩/٢٢ ، ط /الميمنية

(٢) سورة ـــ ق ـــ : آية ٣٧

يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿لمن كان له قلب﴾ قال : قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم، والقلب في هذا الموضع : العقل وهو من قولهم ما لفلان قلب وما قلبه معه أي : ما عقله معه وأين ذهب قلبك يعني: أين ذهب عقلك وقوله تعالى : ﴿أو القي السمع وهو شهيد﴾ يقول أو اصغى لأخبارنا اياه عن هذه القرون التي أهلكناها بسمعه فيسمع الخبر عنهم كيف فعلنا بهم حين كفروا بربهم وعصوا رسله ــ وهو ﴿شهيد﴾ يعني : متفهم لما يخبر عنهم شاهد له بقلبه . غير غافل عنه ولا ساه .

ثم قال ابن جرير : وبنحو الذي قلته في ذلك قال أهل التأويل وان اختلفت الفاظهم فيه والغرض عندي هو : بيان أن القلب يقال له العقل كما نص عليه ابن زيد في تفسير الآية التي ذكرتها آنفا وإذا كنا لا نجزم بصحة هذا القول لكون السند فيه ليس بذاك ولم يكن مرفوعا فإنه على الأقل يلتمس منه ارتباط القلب بالعقل وأنه إن لم يكن القلب هو العقل فالعقل موجود في القلب كما اثبتت التجارب المرئية .

يقول القرطبي [1] : هذه السورة تذكرة وموعظة لمن كان له قلب أي : عقل يتدبر به فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه قال معناه مجاهد وغيره ﴿وقيل لمن كان له قلب﴾ لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن النفس الحية بالقلب لأنه وطنها ومعدن حياتها، كما قال امرء القيس الشاعر الجاهلي المعروف :

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

قال يحيى بن معاذ في الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿لتنذر من كان

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٣

حيا﴾ [1] قال القلب قلبان قلب محتش باشغال الدنيا حتى إذا حضرا أمر من الأمور الأخرة لم يدر ما يصنع، وقلب محتش بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة، وقوله تعالى : ﴿أو القى السمع﴾ أي استمع للقرآن تقول العرب الق إليّ سمعك أي استمع ـ وهو شهيد أي : شاهد القلب : قال الزجاج قلبه حاضر فيما يسمع

وقال سفيان : لا يكون حاضراً وقلبه غائب ، وقال القرطبي [2] في معنى قوله تعالى : ﴿لتنذر من كان حيا﴾ الآية .

قال حيى القلب . [3] قاله قتادة، والضحاك قال عاقلا ـ وقال الفخر الرازي في قوله تعالى : ﴿ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ [4] والقلب قد يجعل كنايةً عن الخاطر والنذير وعند قوم أن محل التفكر هو الدماغ فالله سبحانه وتعالى بين أن محل ذلك هو الصدر ، وتسآل الفخر فقال : هل تدل الآية على أن العقل هو العلم، وعلى أن محل العلم هو القلب والجواب : نعم لأن المقصود من قوله تعالى : ﴿قلوب يعقلون بها﴾ هي العلم، وقوله يعقلون بها كالدلالة على أن القلب آلة لهذا العقل فوجب جعل القلب محلا للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لأن الجاهل لكونه متحيرا يشبه الأعمى، وفي الأعراف عند قوله عز وجل : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ .

---

(١) سورة يس آية : ٦

(٢) تفسير القرطبي : ج ١٥ ص ٥٥

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٦٦

(٤) سورة ـ ق ـ آية ٣٧

قال الفخر احتج العلماء بأن محل العلم هو القلب .

أقول وبالله التوفيق : لاشك أن العقل إن لم يكن هو القلب فهو محله وعلاقته به كعلاقة الثمار بالأشجار، وأن هناك نوراً ساطعا متصلا بالدماغ وهذا هو الذي يدل عليه التفكير — والحزن — والغضب الشديد وجميع العوامل التي تمر بالإنسان، فانا نجد الحزين مشغول القلب داركا للأشياء كلها كما نجد من يصاب في دماغه مشغول القلب زائغ البصر — وكذلك من يصاب في عقله لا يؤاخذ في تلك الحال بما يفعل لأنه لا يدري عما يفعل وهذا من أقوى الأدلة على أن العقل في القلب أو هو هو لأن — الإنسان مادام سليم — القلب فهو سليم الأقوال والأفعال محسوبة عليه أقواله وأفعاله .

وقال إمام الحرمين في كتابه البرهان [1] : تحت عنوان (تصدير الباب بكلام مقنع في العقل) فانا سنسند حقائق العلوم إلى مدارك العقل، ولابد من الاحاطة بحقيقته حسب ما يليق بهذا المختصر .

والكلام مايزال لأمام الحرمين . قال القاضي أبو بكر : العقل من العلوم إذ لا يتصف بالعقل خال من العلوم كلها ، وليس من العلوم النظرية فان النظر لا يقع ابتداء إلا مسبوقا بالعقل ، فانحصر في العلوم الضرورية، وليس كلها فإنه قد يخلو عن العلوم بالمحسوسات من اختلت حواسه، وإن كان على كمال من عقله ثم لم يزل يبحث حتى قال : العقل علوم ضرورية لا يخلو عنها المتصف بالعقل — ولا يتصف بها من لا يتصف بالعقل ثم سبر على ما زعم فاستبان أن العقل علوم ضروية ، بجواز الجائزات .

واستحالة المستحيلات — ولا يتصف بهذه الفنون إلا العاقل كما لا يتصف بها من ليس بعاقل — أقول وبالله التوفيق — هذا الذي ذكره القاضي

---

(١) البرهان في أصول الفقه ج ٢ ص ١١١ ط الأولى .

عن العقل فيه تعقيد وفيه نظر أيضاً فإنه بنى كلامه على أن العقل من العلوم وهذا غير معروف ولم نقف عليه عند عامة من تعرضوا لهذا الموضوع ،ولم يستدل عليه بنصوص من كتاب أو سنة وفي هذه الحال يبقى بدون مرشح .

قال إمام الحرمين [1] معلقاً على كلام القاضي السابق حول العقل : «هذا يرد عليه أنه لا يمتنع كون العقل مشروطا بعلوم وإن لم يكن منها وهذا سبيل كل شرط ومشروط، فإن قيل : فما الذي يبطل ما ذكره القاضي رحمه الله في معنى العقل ؟ قلنا : نرى العاقل يذهل عن الفكر في جواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو : عاقل، فإن قيل : فما العقل (عندكم) قلنا : الكلام فيه ليس بالهين وما حوَّم عليه أحد من علمائنا غير الحارث فإنه قال : العقل غريزة يتأتى بها درك ــ العلوم وليس منها فالقدر الذي يحتمله هذا المجموع أن العقل صفة إذا ثبتت أمكن للمتصف بها درك التوصل إلى العلوم النظرية ــ ومقدماتها من الضروريات التي هي : مستند النظريات ــ وقد قسم أمام الحرمين العلوم إلى ما يدرك بالعقل وما يدرك بالسمع وما يدرك بهما .

فقال : فأما ما يدرك بالعقل فقط فحقائق الأشياء.ودرك استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ــ ووجوب الواجبات العقلية، لا التكليفية : الضرورية منها والنظرية، وأما ما لا يدرك إلا بالسمع، فوقوع الجائزات

---

(١) هو: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوة . الطائي السبهي شغل من الزمان تسعة وخمسون سنة من سني القرن الخامس الهجري (٤١١ ــ ٤٧٨) مشهور بالعلم والزهد والتواضع حتى قيل أنه ملأ المشرق والمغرب وكان إمام عصره بنيسابور ــ وتفقه على أبي الطيب سهل بن محمد العلوكي وقدم مرو قصدا لأبي بكر عبدالله بن أحمد القفال المروزي ــ فتفقه عليه. مات بنيسابور سنة ٤٣٧هـ . معجم البلدان ١٨٢/٥ وسير النبلاء ج ١٣٧/١١ .

وإنتفاؤها وأما ما يشترك فيه السمع والعقل وبذكره ينضبط ما تقدم من القسمين : فنقول فيه :

كل مدرك متقدم على ثبوت كلام صدق فيستحيل دركه من سمع فإن مستند السمعيات كلها (كلام) الحق الصدق، وبيان ذلك بالمثال أن وجود الباري سبحانه وتعالى وحياته وأن له كلاما صدقا لا يثبته سمع، فأما من أحاط بكلام صدق، ونظر بعده في جواز الرؤية وفي خلق الأفعال واحكام القدرة فما يقع من هذا الفن بعد ثبوت مستند السمعيات فلا يمتنع إشتراك السمع والعقل فيه .

أقول وبالله التوفيق :

ينبغي بعد تعريف العقل وثبوته والمميز به فلابد من التفرقة بين السليم وموقفه والمريض وتبلده وقصوره [1] لغرض عوائق تعوقه فالعقل السليم موقفه سليم في الأشياء كلها ينظرها من دائرة تحيط بها كلها ــ بينما العقل البليد أو بعبارة أخرى تبلد العقل فهو ما يقتضيه طارىء من اعتلال أو إختلال ولا يكاد : ينكر ذلك العاقل من نفسه .

ثم يتصدى له طوران : أحدهما ــ أن يعلم قصوره ــ ويتمادى مضطرب العقل ــ والثاني : أن يتمارى أنه ــ مضطرب العقل أم لا ؟ .

وبالجملة لا يحكم لمن هذا حاله بتوقف العقل كحكمنا للأول فيما تقدم ــ وقد صار معظم الأوائل إلى أن درك خواص الأجسام (وحقائقها) من مواقف العقول فليس من الممكن أن يدرك بالعقل الخاصية الجاذبة لتحديد في المغناطيس ــ والله اعلم واحكم وهنا نترك الكلام في هذا المجال الذي سبق إليه إمام الحرمين .

---

(١) البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين جـ ١ ص ١٤٤ .

كما قال إمام الحرمين الحارث بن أسد [1] وتكلم فيه وفي الحقيقة أنـــه يكفي ما قال عن كثرة الخوض لاسيما في هذه العجالة ونتبعها بالعائق الأول من العوائق التي تعيق العقل عن التفكير وهو :

(« التقليــــد »)

وهو لغةً : [2] جعل القلادة في العنق ـــ وتقليد الـولاة هو : جعل الولايات في أعناقهم ومنه قول لقيط الأيادي .

وقلدوا أمركـــم لله دركم حب الـدراع بأمر الحرب مضطلعا.

وأما التقليد في اصطلاح الفقهاء فهو الأخذ بمذهب الـــغير من غير معرفة دليله .

والمراد بالمذهب هو [3] : ما يصح فيه الاجتهاد خاصة .

والمذهب لغة : الطريق ومكان الذهاب ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الأجتهادية .

ويطلق عند المتأخرين من أئمة المذاهب على ما به الفتوى من باب إطـــلاق الشيء على جزئه الأهـم نحو قوله ﷺ : «الحج عرفه» لأن ذلك هو الأهـم عند الفقيه المقلد والله أعلم .

---

(١) الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله من أكابر الصوفية أصولي واعظ من أوائل المتكلـــمين من أهل السنة توفى سنة ٢٤٣ هـ ، شذرات الذهب ١٠٣/٢ .

(٢) تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٤٨٦ ط المدني .

(٣) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل تأليف محمد عبد الرحمن الطرابلسي المغربي ج ١ ص ٢٤

هذا ولا يصح الاجتهاد البته في شيء يخالف نصاً من كتاب الله أو سنة ثابتة سالما من المعارض [١] . لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائنا ما كان، ولا تسوغ مخالفتهما البته لأحد كائنا ما كان فيجب التفطن ، لأن المذهب الذي فيه التقليد يختص بالأمور الأجتهادية ولا يتناول ما جاء فيه نص صريح من الوحي سالم من المعارض .

أقول وبالله التوفيق : تعريف المذهب الآنف الذكر يدل على أن اسم المذهب لم يتناول مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض — وذلك أمر لا خلاف فيه لأجماع العلماء على أن المجتهد المطلق إذا قام باجتهاده دليلا مخالفا لنص من كتاب أو سنة أو اجماع، أن دليله ذلك باطل بلا خلاف . وأنه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الأعتبار[٢] .

وفساد الأعتبار الذي هو مخالفة الدليل لنص أو اجماع من القوادح التي لا نزاع في إبطال الدليل بها وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود في القوادح : والخلف للنص أو إجماع دعا فساد الأعتبار كل من وعى .

قال الشيخ الأمين عليه رضوان الله بعد إيراده شاهد الأصول السابق في القوادح: وبما ذكرنا نعلم — أنه لا اجتهاد اصلا ولا تقليد أصلا في شيء يخالف نصاً من كتاب — أو سنة أو اجماع — وإذا عرفت ذلك فاعلم أن بعض الناس المتأخرين أجاز التقليد ولو كان فيه مخالفة نصوص الوحي كما ذكرنا أقول وبالله التوفيق الذي يشر إليه الشيخ هنا قد صرح في غير هذا الموضوع أنه : الصاوي واضرابه — وعلق أكثر المقلدين للمذهب في هذا

---

(١) أضواء البيان ج ٧ ص ٤٨٦ تأليف الشيخ/محمد الأمين رحمه الله .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ٧ ص ٤٨٧ .

الزمان وأزمان قبله عليه وبعض العلماء منع التقليد مطلقا وممن ذهب إلى ذلك ابن خويز منداد من المالكية [1] ـ والشوكاني في القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ـ والتحقيق ان التقليد منه ما هو جائز ومنه ماليس بجائز ومنه من خالف فيه المتأخرون المتقدمين من الصحابة وغيرهم من العصور الثلاثة المفضلة .

---

(١) ابن خويز هو : منداد . اسمه : محمد أبو بكر بن خويز ـ وهو محمد بن أحمد بن عبد الله قال ابن فرحون: ورأيت على كتبه بخطه محمد بن أحمد بن علي بن اسحاق كنيته أبو عبد الله ـ تفقه على الآبهري وله كتاب كبير في الخلاف ـ وكتاب في أصول الفقه، وكتاب في أحكام القرآن، وعنده شواذ عن مالك وله أختيارات كقوله في أصول الفقه أن العبيد لا يدخلون في خطاب الأحرار وأن خبر الواحد يوجب العلم، وفي بعض مسائل الفقه حكاية عن مالك في التيمم أنه يرفع الحدث ولم يكن بالجيد النظر ولا قوي الفقه ، وقد قال فيه الباجي أبو الوليد : لم اسمع له في علماء العراق ذكرا كان يجانب الكلام وينافر أهله حتى يؤدي ذلك إلى منافرة أهل السنة ويحكم على الكل منهم بأنهم من أهل الأهواء الذين قال مالك فيهم ما قال، الديباج المذهب : ص ٢٦٨ .

ذكر أدلة التقليد وأقسامه

أما التقليد الجائز [1] الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامي عالما أهلا للفتيا في نازلة زلت به ، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً في زمن النبي ﷺ ولا خلاف فيه فقد كان العامي يسأل من شأ من الصحابة عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه، وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط ، بالصحابي الذي أفتاه أو لا بل يسأل عنها من شاء من أصحاب الرسول ﷺ — ثم يعمل بفتياه .

قال صاحب نشر البنود شرح مراقي السعود : رجوعه لغيره في آخر — يجوز للأجماع عند الأكثر يعني : أن العامي يجوز له عند الأكثر الرجوع إلى قول غير المجتهد الذي — استفتاه أولا في حكم آخر لأجماع الصحابة رضي الله عنهم على أنه يسوغ للعامي السؤال لكل عالم، ولأن لكل مسألة حكم نفسها فكما لم يتعين الأول للأتباع في المسألة الأولى إلا بعد سؤاله، فكذلك في المسألة الأخرى .

قال الحطاب [2] شارح مختصر خليل ، قال القرافي : أنعقد الأجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر واجمع الصحابة على أن من استفتى أبابكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ ابن جبل وغرهما — ويعمل بقولهما بغير نكير فمن الدعا رفع هذين الأجماعين فعليه الدليل . نشر البنود ٢/٣٠٤٨

---

(١) أضواء البيان ج ٧ ص : ٤٨٧ .

(٢) هو محمد بن محمد الحطاب المكني بأبي عبد الله ولد بمكة ونشأ بها وأخذ عن والده وحيد بن عبد الغفار . وقاضي المدينة محمد بن أحمد السخاوي وكان حافظاً محققا توفي بطرابلس الغرب سنة ٩٥٤ هـ وكانت ولادته ٩٠٢هـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٧٥/٣ والاعلام ٢٨٦/٧ ط ٣ .

أقول وبالله التوفيق : وما ذكره القرافي من إنعقاد الاجماع [1] صحيح كما لا يخفى.

وقال ابن القيم : في تفصيل القول في التقليد وتقسيمه له إلى ثلاثة أقسام فقال : وانفسامه إلى ما حرم .

القول فيه والأفتاء به . [2] وإلى ما يجب المصير إليـــه، وإلى ما يسوغ من غير إيجاب، وذكر أن النوع الأول ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدهما الإعراض عما أنزل الله وعدم الإلتفات إليه أكتفاء بتقليـــد الأباء .

والثاني : تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله .

والثالث : التقليد بعد قيام الدليل وظهور الحجـــة على خلاف قول المقلد . والفرق بين هذا وبين النوع الأول أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة . وهذا قلد بعد ظهور الحجة له فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله ﷺ ــ وقد ذم الله سبحانه وتعالى هذه الأنواع الثلاثة من التقليد .

في غير موضع كما في قوله تعالى : ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾ [3] .

وقال جل ذكره : ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها**.

---

(١) اعلام الموقعين ج٢ ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) سورة البقرة آية ١٧ .

إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ [1] وقال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ [2] .

وهذا في القرآن كثير لا يكاد يحصر ـــ يذم الله من اعرض عما انزله وقنع بتقليد الآباء وهنا تسأل المؤل فقال : (لماذا ذم الله من قلد الكفار والأباء الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ولم يذم من قلد العلماء المهتدين بل قد أمر بقوله : ﴿فسألوا أهل الذكر﴾ [3] وهم أهل العلم وذلك تقليد لهم ، وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم .

ثم يتولى ابن القيم الإجابة هنا على هذا السؤال فقال[4] : أنه سبحانه ذم من اعرض عما انزله إلى تقليد الأباء وهذا القدر من التقليد هو مما تفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو اعلم منه فهذا محمود غير مذموم، ومأجور صاحبه غير مأزور ، وقال تعالى :﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[5] والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم وقال جل ذكره : ﴿وان تشركوا بالله

---

(١) سولاة الزخرف آية ٢٢ .

(٢) سورة المائدة آية ١٠٤ .

(٣) سورة النحل آية ٤٣ .

(٤) اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٦٨ .

(٥) سورة الإسراء آية ٣١ .

مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ [1] وقال أيضاً : **﴿اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾** [2] فأمر باتباع المنزل خاصة، والمقلد ليس له علم أن هذا هو المنزل وإن كان قد تبينت له الدلالة في خلاف ،قول من قلده، فقد علم أن تقليده في خلافه اتباع لغير المنزل .

وقال تعالى : **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر ذلك خير واحسن تأويلا﴾** [3] .

فمنعنا سبحانه من الرد إلى غيره ــ قال القرطبي [4] بعد صرد الآيات : التقليد ليس طريقا للعلم وتحت هذا البحث قال فيه مسائل الأولى قوله : **﴿وإذا قيل لهم﴾** يعني : كفار العرب .

قال ابن عباس : نزلت في اليهود وقال الطبري الضمير في (لهم) عائد إلى الناس في قوله : ﴿ياأيها الناس كلوا﴾ وقيل هو عائد إلى من في قوله : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله ﴾ الآية وقوله : ﴿اتبعوا ما أنزل الله ﴾ يعني : بالقول والعمل ــ والفينا وجدنا .

قال الشاعر :

فالفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

والثانية قوله : ﴿أو لو كان آباؤهم ﴾ الألف للأستفهام [5] وفتحت الواو

---

(1) سورة الاعراف آية ٣٣ .

(2) سورة الاعراف آية ٣ .

(3) سورة النساء آية ٥٩ .

(4) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١٠ .

(5) تفسير القرطبي ج٢ ص ٢١٠ دار الكتب المصرية ١٣٧٣ .

لأنها واو العطف عطفت جملة كلام على جملة لأن غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا : نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون) فقروا على التزامهم هذا ـــ إذ هي : حال أبائهم .

قال القرطبي : قال علماؤنا: وقوة الفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد ـــ ونظيرها قوله تعالى :

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾[1] وهذه الآية والتي قبلها مرتبطتان بما قبلهما وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بأرائها السفيهة في البحيرة ـــ والسائبة ـــ والوصيلة ـــ فاحتجوا بأنه أمر وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم في ذلك وتركوا ما أنزل الله على رسوله وأمر به في دينه . فالضمير في لهم عائد عليهم في الآيتين جميعا .

ثالثاً تعلق قوم بهذه الآية في ذم ـــ التقليد لذم الله تعالى الكفار بأتباعهم لأبائهم في الباطل واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية . وهذا في الباطل صحيح أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين وعصمة من عصم المسلمين يلجأ اليها الجاهل المقصر عن درك النظر ـــ وأختلف العلماء في جوازه ـــ في مسائل الأصول ـــ وأما جوازه في مسائل الفروع فصحيح .

والرابعة التقليد عند العلماء حقيقته ـــ قبول قول بلا حجة وعلى هذا فمن قبل قول النبي ﷺ من غير نظر في معجزته يكون مقلدا وأما من نظر فيها فلا يكون مقلدا، وقال الفخر الرازي في قوله تعالى : ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم عند الدعاء إلى اتباع ما

---

(١) الفخر الرازي ج٢ ص ٨ .

أنزل الله تركوا التفكير والتدبير وأخلدوا إلى التقليد ، وقالوا : **﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾**
(١)

ضرب لهم هذا المثل . تنبيها للسامعين لهم أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء وقلة الإهتمام بالدين فصيرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار ويحقر إلى — الكافر نفسه إذا سمع ذلك فيكون أكسر لقلبه. وتضيقا لصدره حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد وفيه مسائل أيضاً : نعق الراعي بالغنم إذا صاح بها ، وأما نعق الغراب فبالغين المعجمة وللعلماء في هذه الآية طريقان : أحدهما تصحيح المعنى بالأضمار في الآية — والثاني: اجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار، أما الذين أضمروا فذكروا وجوها الأول هو قول الأخفش والزجاج وابن قتيبة .

كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذي ينعق فصار الناعق الذي هو : (الراعي) — بمنزلة الداعي إلى الحق وهو الرسول ﷺ وسائر الدعاة إلى الحق وصار الكافر بمنزلة الغنم المنعوق بها ووجه التشبيه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول ﷺ والفاظه — وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها — لا جرم حصل وجه التشبيه .

والوجه الثاني : مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناعق في دعائه ما لايسمع كالغنم وما جرى مجراه والبهائم لا تنتفع، فشبه الأصنام في أنها لا تنتفع بهذه ابهائم فإذا كان لا شك أن من دعا بهيمة عد جاهلا فمن دعا حجرا أولى بالذم والجهل والفرق بين هذا القول وما قبله أن ها هنا المحذوف هو : المدعو .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج٥ ص ٨ .

وفي القول الذي قبله المحذوف هو الداعي القول الثالث قال ابن زيد : مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم كمثل الناعق في دعائه عند الجبل فإنه لا يسمع إلا صدى صوته فإذا قال : يازيد يسمع من الصدى يازيد .

فكذلك هؤلاء الكفار إذا دعو هؤلاء الأوثان لا يسمعون إلا ما تلفظوا به من الدعاء والنداء .[1] .

أقول وبالله التوفيق : .. بعد بحث طويل للموضوع خلص الفخر : إلى تساؤلات تتعلق بالمقلد فقال : (يقال للمقلد هل أنت تعترف بأن شرط جواز تقليد الإنسان أن يعلم كونه محقا أم لا ؟ فإن اعترفت بذلك لم تعلم جواز تقليده إلا بعد أن تعرف كونه محقا فكيف عرفت أنه محق وان عرفته بتقليد آخر لزم التسلسل وأن عرفته بالعقل فذلك كاف فلا حاجة إلى التقليد، وإن قلت ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقا فإذن قد جوزت تقليده، وإن كان مبطلا فإذن أنت على تقليدك لا تعلم أنك محق أو مبطل، وأخلص قوله في أخر بحثه بأنه يجب طلب العلم بالدليل لا بالتقليد .

وقال : إنما ذكر الله جل وعلا هذه الآية عقب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيها على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد وفيه أقوى دليل على وجوب النظر، والاستدلال وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل أوعلى ما يقول الغير من غير دليل وقوله في الآية الكريمة : ﴿لا يعقلون شيئا﴾ لفظ عام ومعناه الخصوص .

وقال صاحب تفسير المنار[2] في قوله تعالى : ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ أي وإذا قيل لمتبعي

---

(١) الفخر الرازي ج٥ ص ٦ ط الأولى .

(٢) تفسير المنار ج٢ ص ٩١ ط الثانية .

خطوات الشيطان الذين يقولون على الله بغير علم ولا برهان . اتبعوا ما انزل اللّـــه ولا تتبعوا من دونه أولياء قالوا : لا . نحن لا نعرف ما أنزل الله، بل نتبع ما الفينا . أي وجدنا عليه آباءنا وهو : ما تقلدناه من سادتنا وكبرائنا وشيوخ علمائنا فلم يخاطب هؤلاء ببطلان ما هم عليه وتشنيعه خطابا لهم بل حكى عنهم حكاية يبين فساد مذهبهم كأنه انزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب ولا يعقل الحجج والدلائل كما بين ذلك بالتمثيل ــ ولو كان للمقلدين قلوب يفهمون بها لكانت هذه الحكاية بأسلوبها لتنفيرهم من التقليد كافية فإنهم في كل ملة وجيل [1] يرغبون عن إتباع ما أنزل الله استئناسا بما ألفوه مما ألفوا آباءهم عليه وحسبك بهذا شناعة إذ العاقل لا يؤثر على ما أنزل الله تقليد أحد من الناس وإن كبر عقله وحسن سيره إذ ما من عاقل إلا وهو : عرضة للخطأ في فكره وما من مهتد إلا ويحتمل أن يضل في بعض سيره، فلا فقه في الدين إلا بما أنزل الله ولا معصوم إلا من عصم الله، فكيف يرغب العاقل عما انزل الله إلى اتباع الآباء مع دعواه الأيمان بالتنزيل على أنه لو لم يكن مؤمنا بالوحي لوجب أن ينفره عن التقليد بقوله : **﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾** .

قال : وقال البيضاوي أي : لو كان آباؤهم جهلة لا يفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لا تتبعوهم ــ وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر أو الاجتهاد، وأما اتباع الغير في الدين إذا علم بدليل ما أنه محق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع لما أنزل اليه .

ونقله عنه الألوسي بغير عزو ووصله بآية : **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** وفيه أنه لم يفرق في التقليد بين القطعي المعلوم من الدين بالضرورة وهو : لا يجوز التقليد فيه البته بل يجب عدمه .

---

(١) تفسير المنار ج٢ ص ٩١ ط الثالثة .

فأحكام القضاء وسياسة الأمة هذا هو الذي يشترط فيه القدرة على النظر والاستدلال ولم يفرق بين اتباع النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى لمن قامت عنده الحجة على ثبوته فهو لا يكون إلا محقا وبين المجتهد الذي لا يمكن العلم بأنه محق إلا بالوقوف علي دليله وفهمه وقوله تعالى : ﴿فأسألوا أهل الذكر إن نتم لا تعلمون﴾ .

في طلب السؤال عن أمر قطعي معلوم بالضرورة وهو كون الرسل رجالا يوحى اليهم ــ لا عن رأي اجتهادي وقال الجلال وغيره : لا يعقلون شيئا من أمور الدين، وتعقبه الاتساذ الأمام بقوله : عقل الشيء [1] معرفته بدلائله وفهمه بأسبابه ونتائجه .

وقال ابن جرير الطبري : لا يعقلون شيئا من دين الله وفرائضه وأمره ونهيه [2]، فيتبعوا على ما سلكوا من طريق ويؤتم بهم في أفعالهم، ولا يهتدون لرشد، فيهتدي بهم غيرهم ويقتدي بهم من طلب الدين واراد الحق والصواب، ويقول تعالى لهؤلاء : فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمركم به ربكم وأباؤكم لا يعقلون من أمر دين الله شيئاً . ولا هم مصيبون حقا، ولا مدركون رشدا، وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء المستعمل له في نفسه فأما الجاهل فلا يتبعه فيما هو به جاهل إلا من لا عقل له ولا تمييز .

أقول وبالله التوفيق :

المقلد أعمى يقاد وليس لديه سلاح للمقاومة وهذا مفهوم من تعريف لقرطبي للتقليد[3]، حيث قال : وهو في اللغة : مأخوذ من قلادة البعير فإن

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ج٢ ص ٧٩ ط الباب الحلبي وأولاده .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) تفسير القرطبي ج٢ ص ٢١٠ دار الكتب المصرية .

العرب تقول : قلدت البعير إذا جعلت في عنقه حبلا يقاد به فكأن المقلد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء وكذلك قال الشاعر :

قلدوا امركم لله دركم ثبت الجنان   بأمر الحرب مصطلعا

وقد تقدم هذا البيت في تعريفي للتقليد .. وقال القرطبي في أثناء كلامه على التقليد أنه ليس طريقا للعلم ولا موصلا له لا في الأصول ولا في الفروع : وهو قول جمهور العقلاء والعلماء خلافا لما يحكى عن جهال الحشوية [1]، والتعليمية من أنه طريق إلى معرفة الحق وان ذلك هو : الواجب وأن النظر والبحث حرام والاحتجاج عليهم في كتب الأصول .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد وذكر فيه غيره خلافا كالقاضي أبي بكر بن العربي [2] .

قال بعض الناس يجوز التقليد فى أمر التوحيد وهو خطأ لقوله تعالى : ﴿انا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [3] الآية فذمهم على تقليدهم آباءهم وتركهم اتباع الرسل ولأنه فرض على كل مسلم تعلم أمر التوحيد والقطع به .

وذلك لا يحصل إلا من جهة الكتاب والسنة : ﴿إنهم مقلدون بهذا﴾[4]، قال ابن درباس : وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك

---

(١) الحشوية : هم قوم تمسكوا بالظاهر فذهبوا إلى التجسيم وغيره وهم من الفرق الضلالة، البرهان ج١/ ١١٧ .

(٢) أبو بكر بن العربي هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بأبن العربي المعافري الأندلسي الاشبيلي الحافظ ، كنيته أبو بكر ويلقب بالقاضي كان إماما من أئمة المالكية أقرب إلى الأجتهاد من التقليد فقيها محدثا أوصوليا مفسرا، ولد باشبيلية ٤٦٨ وتوفي في مراكش وحمل ميتا إلى فاس سنة ٥٤٣ ودفن بباب المحروق من فاس، الفتح المبين في طبعات الأصوليين ج٢ ص ٢١ ط ٢ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

(٤) سورة الاحزاب الآية ٦٧ .

بالكتاب والسنة أنهم مقلدون وهذا خطأ منهم بل هو بهم اليق وبمذاهبهم اخلق إذ قبلوا قول ساداتهم فكانوا داخلين فيمن ذمهم الله بقوله : ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ [1] وقوله : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ ثم قال لنبيه ﷺ : ﴿فانتقمنا منهم﴾ الآية . فبين سبحانه أن الهدى فيما جاءت به رسله وليس قول أهل الأثر في عقائدهم : إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا واطعنا سادتنا وكبراءنا بسبيل لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل وإلى متابعة الرسول ﷺ وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل فازدادوا بذلك في التضليل الا ترى أن الله سبحانه اثنى على يوسف في القرآن حيث قال : ﴿اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة ابائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ [2] فلما كان آباؤه عليه الصلاة والسلام [3] أنبياء متبعين للوحي وهو : الدين الخالص الذي ارتضاه الله كان إتباعه أباءه من صفات المدح .

قال الفخر الرازي : [4] إن الله امرهم أن يتبعوا ما أنزل من الدلائل الباهرة فهم قالوا : لا نتبع ذلك وإنما نتبع أباءنا وأسلافنا .

فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد[5] . وأجاب الله عنهم بقوله : ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ الواو في «اولو» واو، العطف دخلت عليها همزة الأستفهام للتوبيخ لأنها تقتضي الأقرار بشيء يكون الأقرار به فضيحة . كما تقتضي الأخبار عن المستفهم عنه .

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٧ .

(٢) سورة يوسف .

(٣) تفسير القرطبي ج٢ ص ١١٢ .

(٤) تفسير الفخر الرازي ج٥ ص ٦ ط الأولى .

(٥) نفس المصدر السابق .

قال الإمام الغزالي (١) بعد أن عرف التقليد بمثل ما قدمنا حيث قال : حاصل تعريف العلماء للتقليد منحصر في أنه قبول القول بلا دليل لأن قبول القول إذا بين دليله ليس بتقليد بل هو عمل بالدليل .

أقول وبالله التوفيق : معنى هذا الكلام منحصر في نقطتين : سبق الكلام عليهما بدون تفصيل ونفصل ذلك هنا :

أولاً : أن التقليد ليس طريقا للعلم . ثانياً : ان التقليد — هو قبول القول بدون بيان الحجة ولا يؤدي إلى أصل العلم ولا إلى فروعه ولا يؤدي إلى معرفة الحق .

يقول الغزالي : وما عثرت على من خالف في هذا غير طائفة قليلة وقد بينت أن هذه الطائفة هي : الحشوية والتعليمية وخلافهما غير معتبر ولا يعتد به .

أقول وبالله التوفيق : على أية حال البحث عن الدليل مطلوب ونحن مأمورون بأن لا نقول حلالا ولا حراما إلا بنص من كتاب أو سنة حرم ذلك واحل ذلك . ثم بدأ الغزالى يبين أوجه بطلان قول الحشوية والتعليمية . فقال : بطلان قول هذه الطائفة من أجه الأول هو أن صدق المقلد لا يعلم ضرورة فلابد من دليل يعلم صدق الرسول ﷺ — بمعجزته وصدق كلام الله بأخبار الرسول ﷺ عن صدقه — وصدق أهل الأجماع بأخبار الرسول ﷺ عن عصمتهم ومن واقع التعريف ندرك أنه حيث لم يقم حجة ولم يعلم الصدق بضرورة ولا بدليل فالاتباع فيه اعتماد على الجهل — الوجه الثاني إلزامهم بالحجة بطريق الأستفسار (٢) فيقول لهم : أنتم تستحيلون الخطأ على مقلدكم أم تجوزونه فأن جوزتموه فأنكم شاكون في صحة مذهبكم وإن

---

(١) المستصفى للإمام الغزالي ص ٥١٦ .

(٢) المستصفى ج٢ ص ٣٨٧ ط شركة الطباعة الفنية المتحدة .

أحللتموه فبم عرفتم استحالته بضرورة أم بنظر وبهذا السؤال وأمثاله التي ستأتي ان شاء الله يصبح المقلد أمام أمرين احلاهما مر ـــ والاحتجاج بأتباع السواد الأعظم لا دليل فيه لأنه قبول قول بدليل كذلك قولهم أن الناظر متورط في شبهات وقد كثر ضلال الناظرين فترك الحظر وطلب السلامة أولى وقد أجاب المانعون على هذه الشبهة فقالوا : وقد كثر ضلال المقلدين من اليهود والنصارى ـــ فبم تفرقون بين تقليدكم وتقليد سائر الكفار حيث قالوا : **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾** .

ثم نقول إذا وجبت المعرفة كان التقليد جهلا وضلالا فكأنكم حملتم هذا خوفا من الوقوع في الشبهة كمن قتل نفسه جوعا وعطشاً خيفة أن يغص بلقمة أو يشرق بشربه لو أكل وشرب . وكالمريض يترك العلاج رأسا خوفا من أن يخطيء في العلاج وكمن يترك التجارة والحراثة خوفا من نزول صاعقة فيختار الفقر خوفاً من الفقر .

الشبهة الثانية

تمسكهم بقوله تعالى : ﴿**ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا**﴾ وأنه نهى عن الجدال في القدر والنظر يفتح باب الجدال ، وأجاب المانعون بأن النهي عن الجدال بالباطل كما قال تعالى : ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾ بدليل قوله تعالي : ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ فأما القدر فنهاهم عن الجدال فيه، إما لأنه كان قد وقفهم على الحق بالنص فمنعهم عن المجاراة في النص ، أو كان في بدء الإسلام فاحترز عن أن يسمعه المخالف فيقول هؤلاء بعد لم يستقر قدمهم في الدين أو لأنهم كانوا مدفوعين إلى الجهاد الذي هو أهم عندهم (١) .

ويعارض المانعون هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾ وقوله تعالى : ﴿**وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ وقوله جل ذكره : ﴿**وما شهدنا إلا بما علمنا**﴾ وقوله تعالى : ﴿**قل هاتوا برهانكم**﴾ هذا كله نهي عن التقليد وأمر بالعلم ولذلك عظم شأن العلماء وقال تعالى : ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات**﴾ وقد ورد في الحديث .

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين» (٢) ولا يحصل هذا بالتقليد بل بالعلم .

---

(١) المستصفى ج٢ ص ٥١٨ ط شركة الطباعة الفنية المتحدة .

(٢) الحديث رواه ابن الصلاح في رحلته يحمل هذا العلم على أنه فعل لم يسم فاعله ويقول من كل خلف عدوله، والمعنى أن الخلف هو : العدولة بمعنى أنه عادل كما يقال : شكور بمعنى : شاكر ويكون الهاء للمباغة والمعنى أن العلم يحمل عن كل خلف كامل في عدالته، والحديث ضعيف، لأنه لا يعرف إلا من طريق معان بن رفاعة ولا يعرف إلا به وهو إما معضل أو مرسل، وإن كان مرسلا فمن طريق إبراهيم بن عبد الرحمن وهو لا يعرف في غير هذا.

وأشهر طرقه عن معان بل كلها دائرة عليه ومعان بن رفاعة السلمي هذا ضعفه ابن معين وابو حاتم =

أقول وبالله التوفيق :

هذا الموقف أمام التقليد صحيح ولكن لا يدخل فيه العامي فليس امامه سوى التقليد ولا سبيل سواه وفتيا المقلد هي : سبيله وهي : أيضاً دليله ولا نزاع في هذا حسب ما رأيت من النصوص المتعلقة بالموضوع والله أعلم .

قال الفخر الرازي [1] في قوله تعالى : ﴿صم بكم عمي﴾ الآية اعلم أنه تعالى لما شبههم بالبهائم زاد في تبكيتهم فقال ﴿صم بكم عمي﴾ لأنهم صاروا بمنزلة الصم في أن الذي سمعوه كأنهم لم يسمعوه — وبمنزلة البكم في ان لا يستجيبوا لما دعوا اليه — وبمنزلة العمي من حيث أنهم أعرضوا عن الدلائل فصاروا كأنهم لم يشاهدوها — قال النحويون : صم أي : هم صم رفع على الإلزام — أما قوله ﴿فهم لا يعقلون﴾ فالمراد العقل الأكتسابي لأن العقل المطبوع كان حاصلا لهم . والعقل عقلان :

عقل مطبوع وعقل مسموع [2] ولما كان طريق اكتساب العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاثة : فلما اعرضوا عنها فقد العقل المكتسب — ولهذا قيل : من فقد حساً فقد علما .

أقول وبالله التوفيق .. الكفار ومن على شاكلتهم ممن ترك الوحي وأخذ بالأقوال بلا دليل لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون . يعني : إلى كيفية إكتسابه ، نسأل الله التوفيق والعافية .

= الرازي — والجوزجاني وابن حبان — وابن عدي — ووثقه علي بن المديني — والحديث ضعيف بل ذهب بعضهم إلى القول بوضعه — والله أعلم

(١) الفخر الرازي ج٥ ص ٦ — ٧ — ٨ ط الأولى .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج٥ ، ٦، ٧، ٨ ط الأولى .

فالذين منعهم الأقتداء بأبائهم من قبول الأهتداء،[1] قالوا: ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل : ﴿أن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ وقال : ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ وقال عز وجل عائبا لأهل الكفر وذاما لهم : ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ .

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء وقد احتج العلماء بهذه الآية في ذم التقليد (٢) ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلدين كما لو قلدوا رجلا فكفر وقلدوا آخر فأذنب ـ وقلدوا آخر في المسألة دنياه فأخطأ وجهها كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وإن اختلفت الأفهام فيه.

وقال تعالى : ﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ (٣) . قال الشيخ الأمين رضي الله عنه بعد سرده لأدلة كثيرة وقد ثبت الأحتجاج بما قدمنا في هذا الباب وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً .

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرناه (٤) وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها وهي الكتاب والسنة أو ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لأبن عبد البر ج١ ص ١٠٩ .

(٢) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٤٩١ .

(٣) سورة التوبة الآية ١١٥ .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٤٩١ .

ثم ساق ابن عبد البر[1] سنده إلى أن قال : حدثنا كثير بن عبد الله بن عمـــرو بن عوف المزني عن أبيـــه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة ، قال : وما هي يارسول الله ﷺ ، قال : أخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر، ومن هوى متبع» . وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه» هذا لفظ أبي عمر في جامعه .

أقول وبالله التوفيق بعد هذه النبذة التي تقدمت : نبين نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخرون الصحابة وغيرهم [2] من القرون المشهود لهم بالخير ــ وهو : تقليد رجل واحد معين دون غيره من جميع العلماء ــ فإن هذا النوع من التقليد لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة ولم يقل به أحد من اصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو : مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحـــد معين دون غيره من جميع علماء المسلمين، فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع ومن يدعي خلاف ذلك فعليه الدليل بأن يعين لنا رجلا واحدا من القرون الثلاثة الأولى التزم مذهب رجل واحد بعينه ولن يستطيع ذلك ابداً لأنه لم يحصل ــ البتة .

ذكر جمل من كلام العلماء في فساد هذا النوع من التقليد اعني : تقليد رجل واحد بعينه والتزام مذهبه وحجج القائلين بذلك ومناقشتها ــ وبعد إيضاح ذلك نبين ما يشهد له الدليل ونرجحه إن شاء الله .

(١) كثير بن عبد الله المذكور في هذا الاسناد ضعيف وأبوه عبد الله مقبول ولكن المتنين المرويين بالأسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على أن أصله صحيح .. وكثير هذا قال فيه ابن حجر : منهم من نسبه إلى الكذب ، التقريب ج٢ ص ١٣٢ / د ت ق .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص ١٠٩ .

قال ابن عبد البر في كتابه [1]: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ما نصه : باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع — وقد ذم الله التقليد في غير موضع من كتابه فقال : ﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله﴾ وروى عن حذيفة وغيره قالوا : (لم نعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم) .

وقال عدي ابن حاتم : اتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب فقال لي : «ياعدي الق هذا الوثن من عنقك» فانتهيت إليه وهو يقرأ : ﴿براءة من الله ورسوله﴾ [2] حتى أتى على هذه الآية : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله﴾ قال : قلت : يارسول الله أنا لم نتخذهم اربابا من دون الله . قال : «بلى أليس يحلون ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه، فقلت: بلى فقال: تلك عبادتهم. قال:أما انهم لو امروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكن آمروهم ، فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله» .

فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية [3] . وهؤلاء الذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله حيث اطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الله فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركا وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين، وأعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركا مثل هؤلاء ، الثاني [4] أن يكون اعتقادهم

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لأبن عبد البر ج٢ ص ١٠٩ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣١ . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ١٨ .

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٨٦ .

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٨٧ .

وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام ان كان مجتهد قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على إجتهاده الذي أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ﷺ ثم تبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول . فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لاسيما أن اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان مع علمه أنه مخالف للرسول ﷺ فهذا : شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه وهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال، وأن كان عاجزا عن إظهار الحق الذي يعلمه فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لم يؤاخذ بما عجز عنه .

وهؤلاء كالنجاشي وغيره وقد أنزل الله الآيات من كتابه كقوله: ﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم**﴾(١) وقوله تعالى : ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾ (٢) الآية وقوله تعالى : ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ (٣)

واما إن كان المتبع للمجتهد عاجزا عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليع مثله من الأجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ ان أخطأ كما

---

(١) السورة ٣ الآية ١٩٩ .

(٢) السورة ٥ الآية ٨٣ .

(٣) السورة ٧ الآية ١٥٩ .

في القبلة وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق [1] فهذا من أهل الجاهلية وإن كان متبوعه مصيبا لم يكن عمله صالحا وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثما كمن قال في القرآن برأيه فإن أصاب فقد أخطأ وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار ــ وهؤلاء، من جنس ما نعي الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ــ ومن جنس عبدة الدينار والدراهم والقطيفة والخميصة الذين ورد ذمهم في السنن ــ الصحيح فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر ولهم من الوعيد بحسب ذلك .

قال ابن حجر[2] في معنى قوله تعالى : ﴿وتجعلون له أندادا﴾ **أي وتجعلون لمن خلق ذلك أندادا وهم الأكفاء من الرجال وتطيعونهم في معاصي الله .**

قال ابن كثير [3] في قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ... الآية﴾ يذكر الله حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أندادا، أي : أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه : لا إله إلا هو ، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله أي الذنوب أعظم؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك »

أقول وبالله التوفيق : فيما تقدم من النصوص رأينا من خلالهما أي : الكتاب، والسنة قوة إرتباط التقليد بالطاعة العمياء وكيف يجر ذلك إلى العبادة والشرك وتعظيم المخلوقين وجعلهم في منزلة لا تصلح ولا تليق بهم ــ وهم

---

(1) تفسير كتاب التوحيد ص ٨٧ .

(2) تفسير ابن جرير الطبري .

(3) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٩٢ .

يرؤن ممن وصل بهم إلى تلك المنزلة: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأو العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ كما انا رأينا كيف قال رسول الله ﷺ لعدي : «اجعلتني لله نداً» وسبب ذلك القول هو : التعظيم بلا شك والله أعلم .

وهنا يدرك أن العبد لا يكون مؤمناً حقاً حتى يتبع ما أنزل الله وقد قال تعالى : **﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجه﴾** [1]ولا وليجة أكبر من أن يجعل الإنسان رجلا يعينه مختارا على كلام الله وكلام سائر الأئمة يقدمه على ذلك كله ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأئمة على كلامه فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله : ﴿وما خالفه منها﴾ تلطف في رده وتطلب له وجوه الحيل فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة؟ قال تعالى : **﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾** [2] وهذا نص في بطلان التقليد .

قال أبو عمرو بن الصلاح[3] : قطع أبو عبد الله الحلمي إمام الشافعين بما وراء النهر ـ والقاضي أبو المحاسن ـ الرياني صاحب بحرا المذهب وغيرهما بأنه لا يجوز للمقلد أن يفتي بما هو مقلد فيه، وذكر الشيخ أبو محمد الجويني في شروحه لرسالة الشافعي عن شيخه أبي بكر الغفال المروزي أنه يجوز لمن حفظ كلام صاحب مذهب ونصوصه أن يفتي به وإن لم يكن عارفا بغوامضه وحقائقه وخالفه الشيخ أبو محمد وقال : لا يجوز أن

---

(١) سورة التوبة الآية ١٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٤ ـ ٦٧ .

(٣) اعلام الموقعين ج٤ ص ٢٤٩ .

يفتي بمذهب غيره إذا لم يكن متبحرا فيه عالما بغوامضه وحقائقه كما لا يجوز للعامي الذي جمع فتاوى المفتيين أن يفتي بها وإذا كان متبحرا فيه جاز أن يفتى به .

وقال ابو عمرو : من قال لا يجوز له أن يفتي بذلك معناه : [1]لا يذكره في صورة ما يقوله من عند نفسه بل يضيفه إلى غيره ويحكيه عن إمامه الذي قلده، فعلى هذا من عددناه في اصناف المفتيين المقلدين ليسوا على الحقيقة من المفتين ولكنهم قاموا مقام المفتين قال ابن القيم ما ذكره أبو عمرو حسن إلا أن صاحب هذه المرتبة يحرم عليه أن يقول مَذْهَبُ الشافعي كذا لما لا يعلم نصه الذي أفتى به، أو يكون شهرته بين أهل المذهب شهرة لا يحتاج معها إلى الوقوف على نصه كشهرة مذهبه في الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر — ووجوب تبيت النية للصوم في الفرض من الليل، ونحو ذلك فاما مجرد ما يجد في كتب من انتسب إلى مذهبه من الفروع فلا يسعه أن يضيفها إلى نصه ومذهبه بمجرد وجودها في كتبهم . فكم فيها من مسألة اختلف المنتسبون اليه في إضافتها إلى مقتضى نصه ومذهبه . فهذا يضيف إلى مذهبه إثباتها وهذا يضيف اليه نفيها .

قال ابن عبد البر : فلا ندري كيف يسع المفتي عند الله أن يقول : هذا مذهب الشافعي وهذا مذهب مالك — وأحمد — وأبو حنيفة — واستبعد ابن القيم علي بن عمرو قوله : أن لهذا المفتي أن يقول : هذا مقتضى مذهب الشافعي مثلا — فلعمر الله لا يقبل ذلك من كل من نصب نفسه للفتيا، حتى يكون عالما بمأخذ صاحب المذهب ومداركه وقواعده، جمعا وفرعا، ويعلم أن ذلك الحكم مطابق لأصوله وقواعده بعد استفراغ وسعة في معرفة ذلك فيما إذا اخبر أن هذا مقتضى مذهبه كان له حكم أمثاله ممن قال بمبلغ علمه،

---

(١) اعلام الموقعين ج٤ ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها وبالجملة . فالمفتي مخبر عن الحكم الشرعي وهو : إما مخبر عما فهمه عن الله ورسوله، وإما مخبر عما فهمه من كتابه أو نصوص من قلده دينه، وهذا لون ــ وهذا لون . فكما لا يسع الأول أن يخبر عن الله ورسوله إلا بما علمه ، فكذا لا يسع الثاني أن يخبر عن إمامه الذي قلده دينه إلا بما يعلمه وبالله التوفيق .

حاصل جميع حجج المقلدين منحصر في قولهم : [1] نحن معاشر المقلدين ممتثلون قول الله : ﴿**فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [2] فأمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من هو اعلم منه، وهذا نص قولنا وقد أرشد النبي ﷺ من لا يعلم إلى سؤال من يعلم ، فقال في حديث صاحب الشجة : ﴿الا سألوا أن لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال﴾ وقال أبو العسيف الذي زنى بأمرأة مستأجره : واني سألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد أهل العلم .

وهذا عالم الأرض عمر بن الخطاب قد قلد أبا بكر ، فروى شعبة عن عاصم الأحوال عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة : أقضي فيها فان يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء : وهو مادون الولد و الوالد، فقال عمر بن الخطاب : انني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر وصح عنه أنه قال : رأينا لرأيك تبع وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر، وقال الشعبي عن مسروق كان ستة من أصحاب النبي ﷺ يفتون الناس وهم : ابن مسعود ــ وعمر بن الخطاب ــ وعلي ــ وزيد بن ثابت ــ وأبي بن كعب ــ وأبو موسى ــ وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة كان عبد الله يدع قوله لقول عمر ــ وكان أبو موسى يدع قوله

---

(١) أضواء البيان في إيضاح تفسير القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥٠٠ .

(٢) سورة النحل الآية ٤٣ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٦٣٥ .

لقول علي ــ وكان زيد يدع قوله لقول أبي بن كعب .

وقد قال ﷺ : « أن معاذاً قد سن لكم سنة فكذلك فافعلوا» في شأن الصلاة حيث أخرها فصلى ما فاته من الصلاةمع الإمام بعد الفراغ . وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام .

قال المقلدة : وقد أمر الله بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وأولى الأمر[1] وهم العلماء أو العلماء والأمراء وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم وقال تعالى : ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بأحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾[2] وتقليدهم اتباع لهم ففاعله ممن رضي الله عنهم وقد قال عبد الله بن مسعود : من كان مستنا فليستسن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة .

أولئك اصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوما اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه فأعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فأنهم كانوا على الهدى المستقيم ــ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعد» وقال : «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن أم معبد» .

وقد كتب عمر إلى شريح القاضي[3] : أقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم يكن في سنة رسول الله

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥٠٠ .

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٠٠ المعجم لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٤١ .

(٣) شريح هو : ابن عبد الله النخعي الكوفي، القاضي بواسط ثم الكوفة ــ أبو عبد الله صدوق يخطيء كثيراً تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة ــ وكان عادلا فاضلا عابدا ــ شديداً على أهل البدع ــ من الثامنة ــ مات سنة سبع أو ثمان وسبعين/ خ ت م ع ال ب . ج١ ص ٣٥١ .

ﷺ فاقض بما قضي به الصالحون ». وقد منع عمر من بيع أمهات الأولاد وتبعه الصحابة والزم بالطلاق الثلاث فتبعوه أيضاً ـ واحتلم مرة فقال له عمرو بن العاص خذ ثوبا غير ثوبك . فقال : لو فعلتها صارت سنة . [1]

وقال ابي ابن كعب وغيره من الصحابة ما استبان لك فاعمل به وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه، وقد كان الصحابة يفتون ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، وهذا تقليد لهم قطعا إذ قولهم لا يكون حجة في حياة النبي ﷺ وقد قال تعالى : ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون**﴾ [2] فأوجب عليهم قبول ما أنذروهم به إذا رجعوا اليهم وهذا تقليد منهم للعلماء وصح عن ابن الزبير أنه سئل عن الجد والأخوة فقال : أما الذي قال : رسول الله ﷺ ـ لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذته خليلا فانه أنزله ابا . وهذا ظاهر في تقليده له وجاءت الشريعة بقبول قول القائف والخارص والقاسم والمقوم للمتلفات وغيرها .

والحاكمون بالمثل في جزاء الصيد وذلك تقليد ـ محض واجمعت الأمة على قبول قول المترجم ـ والرسول ـ والمعدل ـ والمعرف وان اختلفوا في جواز الاكتفاء بواحد، وذلك تقليد محض لهؤلاء واجمعوا على جواز شراء اللحم ـ والثياب ـ والطعام من غير سؤال عن اسباب حلها وتحريمها اكتفاء بتقليد اربابها ولو كلف الناس كلهم الاجتهاد وان يكونوا علماء فضلاء لضاعت مصالح العباد وتعطلت الصنائع والمتاجر وكان الناس كلهم مجتهدين ـ وهذا مما لا سبيل اليه شرعا والقدر قد منع من وقوعه وقد أجمع الناس على تقليد الزوج للنساء اللاتي يهدين اليه زوجته وجواز وطئها

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ .

(٢) السورة التوبة الآية ١٢٢ .

تقليدا لهن في كونها هي : زوجته وأجمعوا على أن الأعمى يقلد في القبلة وعلى تقليد الأمة في الطهارة وقراءة الفاتحة وما يصح به الأقتداء وعلى تقليد الزوجة ، مسلمة كانت أو ذمية ان حيضها قد انقطع فيباح للزوج وطؤها [1] بالتقليد ويباح تزويجها بالتقليد في انقضاء عدتها وعلى جواز تقليد الناس للمؤذن في دخول الوقت ولا يجب عليهم الاجتهاد ومعرفة ذلك بالدليل وقد قالت الأمة السوداء لعقبة بن الحارث : [2]أرضعتك وأرضعت امرأتك فأمره ﷺ بفراقها، وتقليدها فيما اخبرت به من ذلك، وقد صرح الأئمة بجواز التقليد فقال حفص بن غياث : [3] سمعت سفيان يقول : إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه وأنت ترى تحريمه فلا تنهه .

وقال محمد بن الحسين : يجوز للعالم تقليد من هو أعلم منه ولا يجوز له تقليد من هو مثله وقد صرح الشافعي بالتقليد . فقال : في الضبع : بعير قلته تقليد العمر — وقال في مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب : قلته تقليد العثمان — وقال في مسألة الجد مع الأخوة أنه يقاسمهم ثم قال : وإنما قلت بقول زيد وعنه قبلنا أكثر القرائض : وقال في موضع آخر من كتابه الجديد : قلته تقليدا لعطاء — وهذا أبو حنيفة رحمه الله قال في مسألة الآبار [4] ليس معه فيها إلا تقليد من تقدمه من التابعين وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة يصرح في موطئه بأنه أدرك العمل على هذا وهو الذي عليه أهل العلم ببلدنا ويقول في غير موضع : ما رأيت أحداً اقتدى به يفعله .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥٠٤ .

(٢) عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف النوفلي المكي صحابي — من مسلمة الفتح — بقي إلي بعد الخمسين/خ — د، ت — س التقريب ج٢ ص ٢٦ .

(٣) حفص بن غياث : بمعجمه مكسورة وياء ومثلثه — ابن طلق بن معاوية النخعي أبو عمر الكوفي القاضي — ثقة فقيه — تغير حفظه قليلا في الآخر — من الثامنة — مات سنة اربع، أو خمس وتسعين وقد قارب الثمانيني/ ع — التقريب ج١ ص ١٨٩ .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥٠٩ .

ولو جمعنا ذلك من كلامه لطال .

وقد قال الشافعي في الصحابة : رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا، وقد جعل الله سبحانه في فطر العباد تقليد المتعليمن للأستاذين والمعلمين ولا تقوم مصلحة الخلق إلا بهذا وذلك عام في كل علم وصناعة وقد فاوت الله سبحانه وتعالى بين قوى الأبدان كما فاوت بين الأذهان فلا يحسن في حكمته وعدله ورحمته أن يفرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله ولو كان كذلك لتساوت أقدام الخلائق في كونهم علماء ــ بل جعل الله سبحانه وتعالى هذا عالما وهذا متعلما ، وهذا متبعا للعالم مؤتما به بمنزلة المأموم مع الإمام والتابع مع المتبوع، وأين حرم الله سبحانه ــ على الجاهل أن يكون متبعا للعالم مؤتما به ــ مقلداله يسير سيره وينزل بنزوله وقد علم الله سبحانه أن النوازل والحوادث كل وقت نازلة بالخلق فهل فرض على كل منهم فرض عين أن يأخذ حكم نازلته من الأدلة الشرعية بشروطها ولوازمها، وهل ذلك في إمكان أحد فضلا عن كونه مشروعا؟ وهؤلاء اصحاب الرسول ﷺ فتحوا البلاد وكان الحديث العهد بالإسلام يسألهم فيفتونه ولا يقولون عليك أن تطلب الدليل ومعرفة الحق في هذه الفتوى ولا يعرف ذلك عن أحد منهم البتة ــ وهل التقليد إلا من لوازم التكليف ولوازم الوجود؟ فهو من لوازم الشرع والقدر، والمنكرون له، مضطرون اليه ولابد وذلك فيما تقدم بيانه من الأحكام وغيرها .

وتقول لمن لم يحتج عل بطلانه : كل حجة أثرية ذكرتها فأنت مقلد لحملتها ورواتها .. إذا لم يقم دليل قطعي على صدقهم فليس بيدك إلا صدق الراوي [1] وليس بيد الحاكم إلا تقليد الشاهد وكذلك ليس بيد العامي إلا تقليد العالم، فما الذي سوغ لك تقليد الرواي والشاهد ومنعنا من تقليد العالم وهذا سمع بأذنه مارواه . وهذا عقل بقلبه ما سمعه فادى هذا مسموعه، وأدى

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥٠٦، ٥٠٧ .

هذا معقوله، وفرض على هذا تأدية ما سمعه وعلى هذا تأدية ما عقله وعلى من لم يبلغ منزلتهما القبول منهما ثم يقال للمانعين من التقليد انتم منعتموه خشية وقوع المقلد في الخطأ، بأن يكون مقلده مخطأ في فتواه، ثم اوجبتم عليه النظر والأستدلال في الحق، ولا ريب أن صوابه في تقليده للعالم أقرب من صوابه في اجتهاده هو لنفسه، وهذا كمن أراد شراء سلعة لأخبرَة له بها فإنه إذا قلد عالما بتلك السلعة خبيرا بها أمينا ناصحا كان صوابه وحصول غرضه أقرب من اجتهاده لنفسه، وهذا متفق عليه بين العقلاء هذا هو غاية ما يحتج به المقلدون . وقد ذكره ابن القيم رحمه الله في اعلام الموقعين وبين فساده من واحد وثمانين وجها.

أقول وبالله التوفيق قد بينت الكثير من أمر التقليد حين بدأت بتعريفه عند العلماء وأرجو أن أكون ذكرت عنه ما فيه الكفاية لطالب الحق غير المتعنت والآن نبين بعض النقاط التي أثارها ابن القيم حين شرع في بيان إبطال حجج المقلدين [1] فقال رحمه الله : عجبا لكم معاشر المقلدين الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله ولا معدودين في زمرة أهله كيف ابطلتم مذهبكم بنفس دليلكم .

فما للمقلد وما للأستدلال؟ واين منصب المقلد من منصب المستدل، وهل ما ذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرتموها من صاحب الحجة، فتجملتم بها، بين الناس، وكنتم في ذلك متشبعين بما لم تعطوه .. ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم انكم لم تؤتوه، وذلك ثوب [2] زور لبستموه، ومنصب لستم من أهله غصبتموه، فأخبرونا هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم اليه ــ وبرهان دلكم عليه فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل وكنتم به عن التقليد

---

(١) أعلام الموقعين .

(٢) نفس المرجع السابق ج٧ ص ٥٠٨ .

بمعزل أم سلكتم سبيله اتفاقا، وتخمينا من غير دليل ـ وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين سبيل وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم، ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة ، قلتم لسنا من أهل هذه السبيل، وإن خاطبناكم بحكم التقليد ، فلا معنى لما قلتموه من دليل والعجب أن كل طائفة من الطوائف وكل أمة من الأمم تدعي أنها على حق حاشا فرقة التقليد ، فإنهم لا يدعون ذلك ولو ادعوه لكانوا مبطلين فإنهم شاهدون ـ على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم اليها وبرهان دلهم عليها وإنما سبيلهم محض التقليد ـ والمقلد لا يعرف الحق من الباطل ـ واعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم وقالوا : نحن على مذاهبهم وقد دانوا بخلافهم في أصل المذهب الذي بنوا عليه، فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم ويتبعوه فخالفوهم في ذلك كله، وقالوا : نحن من اتباعهم، تلك أمانيهم وما أتباعهم إلا من سلك سبيلهم واقتفى آثارهم في أصولهم وفروعهم، وأعجب من هذا أنهم مصرحون في كتبهم ببطلان التقليد وتحريمه وأنه لا يحل القول به في دين الله ولو اشترط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولا توليته، ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط وكذلك المفتي يحرم عليه الافتاء بما لا يعلم صحته باتفاق الناس والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة عليه .

ثم كل منهم يعلم أنه مقلد لمتبوعه لا يفارق قوله ويترك له ما خالفه من كتاب أو سنة أو قول صاحب،[1] أو قول من هو أعلم من متبوعه أو نظيره وهذا من أعجب العجب، وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله، فلم يسقط منها

(١) اعلام الموقعين ..

شيئاً واسقط اقوال غيره فلم يأخذ منها شيئاً ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في عصر التابعين، ولا تابع التابعين فليكذبنا المقلدون برجل واحد، سلك سبيلهم ـ الوخيمة، في القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه ﷺ ، فالمقلدون لمتبوعهم فجميع ما قالوه يبيحون به الفروج والدماء والأموال ويحرمونها ـ ولا يدرون أذاك صواب أم خطأ على خطر عظيم، ولهم بين يدي الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله مالم يعلم أنه لم يكن على شيء انتهى محل الغرض منه بلفظه ـ قال الشيخ الأمين : (١) وعلى كل حال فإنتم أيها المقلدون : تقلدون أنه لا يجوز العمل بالوحي إلا لخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال على التقليد بآية: ﴿فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمو﴾ وآية : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ الآية هل رجعتم عن قولكم بأن الإستدلال بالوحي لا يجوز لغير المجتهد أو ارتكبتم ما تعتقدون أنه حرام من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم عن رتبة الأجتهاد، وفي هذا رد إجمالي لجميع ما أستدللتم به على التقليد الذي أنتم عليه ثم يقال اليست هذه الآيات التي استدللتم بها في زعمكم من ظواهر الكتاب التي سن لكم الصاوي وأمثاله أن العمل بها من أصول الكفر فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر الكتاب يكون العمل به ليس من أصول الكفر فلم تجرأتم على شيء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الأستدلال بالقرآن مع أنه لا يجوز عندكم إلا للمجتهدين .

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥٠٩، ٥١٠ .

رد إستدلال المقلدين بإيجاز

أما استدلالهم[1] بقوله تعالى : ﴿**فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ فهو استدلال في غير محله . فإن الآية لا تدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذي هم عليه من التزام جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها، ولاشك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحي الذين يعلمون ما جاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة .

فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذي هو الوحي ومن سأل عن الوحي وأُعلم به وبين له كان عمله به اتباعا للوحي لا تقليدا واتباع الوحي لا نزاع في صحته . وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد في الجملة فهي لا تدل إلا على التقليد الذي قدمنا أنه لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو تقليد العامي الذي تنزل به النازلة عالما من العلماء وعمله بما أفتاه به من غير التزام منه لجميع ما يقوله ذلك العالم ولا تركه لجميع ما يقوله غيره، وأما استدلالهم بالحديث الوارد في الرجل الذي اصابته شجة في رأسه ثم أحتلم فسأل اصحابه : هل يعلمون له رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نرى لك رخصة وأنت قادر على الماء فاغتسل فمات . فبلغ النبي ﷺ ذلك فقال : «قتلوه قتلهم الله الا سألوا اذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال» .

فهو استدلال أيضاً في غير محله، وهو حجة أيضاً على المقلدين ـــ لا لهم .

قال فى اعلام الموقعين[2] في بيان وجه ذلك ما نصه : أن النبي ﷺ

---

(١) المصدر السابق ج٧ ص ٥١١ .

(٢) اعلام الموقعين ج٢ ص ٢١٥ .

إنما أرشد المستفتين كصاحب الشجة بالسؤال عن حكمه وسنته فقال : « قتلوه قتلهم الله» فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم . وفي هذا تحريم الأفتاء بالتقليد ــ فإنه ليس علما باتفاق الناس، فإنما دعا رسول الله ﷺ على فاعله، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم ــ فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم وكذلك سؤال أبي العسيف الذي زنى بأمرأة مستأجرة، لأهل العلم، فإنه لما أخبروه بسنة رسول الله ﷺ في البكر الزاني أقره على ذلك ولم ينكره، [1] فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم ــ وأما استدلالهم بأن عمر قال في الكلالة : أني لاستحي من الله أن أخالف أبا بكر، وأن ذلك تقليد منه له فلا حجة لهم فيه أيضاً، وخلاف عمر لأبي بكر رضي الله عنهما اشتهر من أن يذكر كما خالفه في سبي أهل الردة فسباهم أبو بكر وخالفه عمر . وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا لمن ولدت لسيدها منهن ونقض حكمه ومن جملتهن :

خولة الحنفية أم محمد بن علي وخالفه في أرض العنوة فقسمها [2] أبو بكر ووقفها عمر وخالفه في المفاضلة في العطاء فرأى أبو بكر التسوية ورأى عمر المفاضلة وخالفه في الاستخلاف فاستخلف أبو بكر عمر على المسلمين ولم يستخلف عليهم عمر أحداً إيثارا لفعل رسول الله ﷺ على فعل أبي بكر رضي الله عنه ، وخالفه في الجد والأخوة، مع أن خلافة لابي بكر الذي استحي منه عمر هو خلافه في قوله : «ان يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء» .

هو : ما دون الولد والوالد فاستحيى عمر من مخالفة أبي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه وأنه ليس كلامه كله صوابا مأمونا عليه الخطأ ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض في

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥١١ ــ ٥١٢ .

(٢) اعلام الموقعين ج٢ ص ٢١٩ .

الكلالة بشيء [1] وقد اعترف أنه لم يفهمها قاله في اعلام الموقعين .

ومن العجب استدلال المقلدين على تقليدهم، باستحياء : عمر من مخالفة أبي بكر مع أنهم لم يستحيوا من مخالفة أبي بكر وعمر، وجميع الصحابة ومخالفة الكتاب والسنة إذا كان ذلك لا يوافق مذهب أمامهم كما هو معلوم من عاداتهم ، وكما أوضحه الصاوي في الكلام الذي قدمناه على قوله تعالى : ﴿ولاتقولن لشيء أني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾ .

فقد قال الصاوي : أن من خرج من المذاهب الأربعة فهو ضال مضل [2] ولو وافق الصحابة والحديث الصحيح والآية وربما اداه ذلك إلى الكفر لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر فمن هذا مذهبه [3] ودينه وكيف يقول باستيحاء عمر من مخالفة أبي بكر بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي، أو قول أحد من أصحاب رسول الله ﷺ مع أن أبا بكرر خليفة راشدا أمر النبي ﷺ بالأقتداء به في قوله : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي» الحديث ـ فليس الأقتداء بالخلفاء كالأقتداء بغيرهم أما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبي بكر رضي الله عنهما : رأينا لرأيك تبع .

فيكفي في رده ما قدمناه قريباً، من مخالفة عمر لأبي بكر، مع أن القصة التي قال فيها : رأينا لرأيك تبع، رد فيها على أبي بكر بعض ما قاله، وايد الصحابة ما قاله عمر في رده على أبي بكر رضي الله عنهما ، لأن الحديث المذكور في وفد بزاخة ـ من أسد وغطفان حين قدموا على أبي بكر يسألونه الصلح فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية .

---

(١) اعلام الموقعين ج٢ ص ٢١٩ .

(٢) تفسير الصاوري .

(٣) نفس المصدر السابق ج٧ ص ٥١٤، ٥١٥ .

فقالوا : هذه المجلية قد عرفناها . فما المخزية؟ قال : تنزع عنكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما أصبتم منا .. وتدون لنا قتلانا، إلى آخر كلامه وفيه فقام عمر بن الخطاب فقال : قد رأيت رأيا سنشير عليك، أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ما ذكرت .. وما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم في انار، فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله ليس لها ديات، فتتابع القوم على ما قال عمر رضي الله عنه .

فهذه القصة الثابتة في بعض الفاظها : ورأينا لرأيك تبع، وأنت ترى عمر رضي الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضي الله عنه، إلا فيما يعتقد صوابه فما ظهر له أنه صواب قال له فيه : نعم ما ذكرت، وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبي بكر هو قول أبي بكر بدفع ديات الشهداء، لأن عمر يعتقد أن الشهيد في سبيل الله لا دية له لأن الله يقول : **﴿أن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حق في التوراة والأنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾** [1] .

وذلك يوضح لك أن الصحابة رضي الله عنهم لا يعدلون عن الكتاب والسنة إلى قول [2] أحد وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط ولو وافق عمر في بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض لاتفاق رأيهم لا لتقليد بعضهم لبعض، وقد خالف ابن مسعود عمر في مسائل كثيرة جداً كمخالفته له في أم الولد، لأن ابن مسعود يقول فيها أنها تعتق من نصيب ولدها ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق في ركوعه إلى أن مات .

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١ .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥١٦ .

وعمر كان يضع يديه على ركبتيه، وكان ابن مسعود يقول في الحرام هي يمين وعمر يقول : أنه طلقة واحدة . وكان ابن مسعود يحرم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما، وينكح احدهما الآخر، وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها ، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذه كثيرة معلومة .

مع أن ابن مسعود [1] يقول أنه اعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان يعلم احداً أعلم منه به لرحل اليه، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . وقد قدمت عنه قوله : كن عالما أو متعلما ولا تكن إمعة . فليس ابن مسعود من أهل التقليد، مع أن المقلدين المحتجين بتقليد ابن مسعود لعمر لا يقلدون ابن مسعود ولا عمر ولا غيرهما من اصحاب رسول الله ﷺ، ولا يأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة رحمهم الله .

وأما استدلالهم على التقليد [2]بأن عبدالله كان يدع قوله لقول عمر، وأبو موسى[3] كان يدع قوله لقول علي، وزيد يدع قوله لقول أبي بن كعب فهو ظاهر السقوط ايضاً، لأن من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضي الله

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي أبو عبد الرحمن من السابقين الأولين ومن كبار العلماء من الصحابة مناقبة جمة ـــ وأمره عمر على الكوفة ومات سنة ٣٢ هـ أو التي بعدها ، تقريب التهذيب ج١ ص ١٥٠ ، وأنظر سيرة ابن هشام ج٢٥٤/١ وطبعات خليفة خياط ٣٦/١٦ انساب الاشراف ج١ ص ٢٠٤ الاستعاب ج٣١٦/٢ وجوامع السيرة لابن حزم ٤٧ وتاريخ بغداد ١٤٧/١ والاكمال لابن ماكولاد ٤١٨/٧ وصفوة الصفوة لابن الجوزي ٣٩٥ اسد الغابة ٣٨٤/٣ وتحفة الاشراف ٣/٧ وتاريخ الاسلام ١٠٠/٢ للذهبي وتذكرة الحفاظ ١٣/١ معرفة القراء الكبار للذهبي ٣٣/١ البداية والنهاية ١٦٢/٧ الاصابة ٣٦٨/٢ تهذيب التهذيب ٢٧/٦ مجمع الزوائد ٢٨٦/٩ وسبل الهدى والرشاد ٤١٣/٢ الفكر السامي ١٨٢/١ .

(٢) نفس المصدر السابق ج٧ ص ٥١٦ ـــ ٥١٧ .

(٣) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار ـــ بفتح المهملة وتشديد الضاد أبي موسى الأشعري صحابي جليل مات سنة ٥٠ هـ .

عنهم لا يدعون سنة رسول الله ﷺ لقول أحد ، وهذا لاشك فيه، وكان ابن عمر يدع قول عمر إذا ظهرت له السنة وكان ابن عباس يقول : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر، وأما إستدلالهم على التقليد بأن معاذا رضي الله عنه صلى مسبوقا فصلى ما أدرك مع الإمام أولا ، ثم قضي ما فاته بعد سلام الإمام، وكانوا قبل ذلك يصلون ما فاتهم أولا ثم يدخلون مع الإمام في الباقي ، وأن النبي ﷺ قال في ذلك : «أن معاذاً قد سن لكم سنة، فكذلك فافعلوا»[1]. فهو ظاهر السقوط ايضاً ، لأن ذلك لم يكن سنة إلا بأمر رسول الله ﷺ ، كما لا يخفى ـــ فلا حجة قطعاً في قول أحد كائنا ما كان ورسول الله ﷺ موجود . وإنما العبرة بقوله ﷺ وفعله وتقريره، وهذا معلوم بالضرورة من الدين وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى : ﴿**يايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ قائلين بأن أولي الأمر المراد بهم العلماء وأن طاعتهم المراد بها في الآية هي : تقليدهم فهو ظاهر السقوط أيضاً لأنه لا يجوز طاعة أولى الأمر إجماعا فيما خالف كتابا أو سنة، [2] ولا طاعة لهم إلا في المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ولا نزاع بين المسلمين في أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

والتحقيق في معنى الآية الكريمة ـــ أن المراد بأولي الأمر[3]: ما يشمل الأمراء والعلماء ، لأن العلماء مبلغون عن الله ورسوله والأمراء منفذون ولا تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه، لأن ما أمر به أولوا الأمر لا يخلو من أمرين أحدهما أن يكون طاعة لله ورسوله من غير نزاع، وطاعة أولى الأمر

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن ـــ من اعيان الصحابة شهد بدرا وما بعدها وكان اليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن ـــ مات بالشام سنة ثمان عشرة

(٢) مشهور /ع التقريب ج٢ ص ٢٢٥ .

(٣) أضواء البيان ايضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥١٧، ٥١٨ .

في مثل هذا من طاعة الله ورسوله، والثاني أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أولا؟ وفي هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولي الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح تعالى بذلك في نفس الآية . لأن الله تعالى لما قال : ﴿اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[1] أتبع ذلك بقوله : ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ فالآية صريحة في رد كل تنازع إلى الله ورسوله . والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد اليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته ﷺ .

أقول وبالله التوفيق : التحاكم لا يكون إلا بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وهذا شيء معلوم من الدين بالضرورة فليس فيه مجال للرأي لكونه منصوصا من الكتاب والسنة المطهرة .

قال تعالى : ﴿وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾[2] وقال أيضاً : ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ وكذلك الأحاديث كثيرة دالة على أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كحديث ابن عمر : أن النبي ﷺ قال : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» .

وحديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال[3] : في السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا في النار : «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة في المعروف» [4] ولا يخفي أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ٤٣٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٩ المعجم المفهرس لالافظ القرآن ص ٢١٣ .

(٣) نفس المصدر السابق ج٧ ص ٥١٩ .

اخرجه البخاري ج١٣ ص ٢٠٣ فتح الباري ومسلم ج١٥/٦ ـــ وأبو داود رقم ٢٦٢٥ والنسائي

(٤) ج٢ ص١٨٧ والطيالسي ١٠٩ وأحمد ج١ ص ٥٤ عن علي رضي الله عنه .

في الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهي الله ورسوله والمقلدين مقرون على أنفسهم بأنهم لا يعملون أمر الله ولا نهيه ولا أمر رسوله ولا نهيه وغاية ما يدعون علمه هو أن الإمام الذي قلدوه قال كذا، مع عجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب بل أكثرهم لا يميزون بين قول الإمام وبين ما ألحقه اتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه ، ولا شك أن طاعة العلماء هي : اقتفاء ما كانوا عليه من النظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقديمها على كل قول وعلى كل رأي كائنا ما كان .

فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم، كما تقدم، وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسن رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ قائلين : أن تقليدهم من جملة اتباعهم باحسان، فمقلدهم ممن رضي الله عنه بنص الآية فهو ظاهر السقوط ايضاً، لأن الذين اتبعوهم بأحسان هم الذين ساروا على مثل ما كانوا عليه من العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فلم يكن احد منهم يقلد رجلا ويترك الكتاب والسنة لقوله فالمقلدون التقليد الأعمي ليسوا ممن اتبعهم البته، بل هم اعظم الناس مخالفة لهم — وابعدهم عن إتباعهم ، فاتبع الناس لمالك مثلا — ابن وهب ونظرائه، ممن يعرضون أقواله على الكتاب والسنة فيأخذون منها ما وافقهما دون غيره، واتبع الناس لابي حنيفة أبو يوسف ، [1] ومحمد بن

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبه كان فقيها علامة من حفاظ الحديث ولد بالكوفة سنة ١١٣ هـ وولى القضاء ببغداد ايام المهدي والهادي والرشيد ومات في خلافته وهو على القضاء وهو أول من دعى بقاضي القضاه — الاعلام ٢٥٢/٩ — مفتاح السعادة ١٠٠/٢ اخبار القضاه لوكيع ٢٥٤/٣ — والنجوم الزاهرة ١٠٧/٢ البداية والنهاية ١٨٥/١٠ وتاريخ بغداد ٢٤٢/١٤ وابن خلكان ٣٠٣/٢ ومرآة الجنان ٣٨٢/١ ..

الحسين مع كثرة مخالفتهما له، لأجل الدليل من كتاب أو سنة، واتبع اصحاب أحمد بن حنبل به البخاري ومسلم وأبو داود والأثرم يقدمون الدليل على قوله وقول غيره وهكذا وإما استدلالهم على تقليدهم : بحديث « اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» فهو ظاهر السقوط ايضاً .

اعلم أولاً أن الحديث لا يصح عن النبي ﷺ فهو حديث ضعيف لا يصح الأحتجاج به .

فجميع طرقه ليس فيها شيء قائم ـــ قال في أعلام الموقعين [1] : روى هذا الحديث من طريق الأغمش عن أبي سفيان عن جابر، ومن حديث سعيد ابن المسيب عن ابن عمر، ومن طريق حمزة الجري عن نافع عن ابن عمر ولا يثبت شيء منها . قال ابن عبد البر : حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد ان ابا عبد الله بن مضرح حدثهم ، حدثنا محمد بن أيوب الصموت قال : قال لنا البزار، وأما ما يروى، عن النبي ﷺ :(أصحابي كالنجوم بأيهم إقتديتم اهتديتم) فهذا الكلام لا يصح عن النبي ﷺ ، وضعف الحديث المذكور معروف عند أهل العلم ، ومع أن المقلدين المحتجين به يمنعون تقليد الصحابة ويحرمون الأهتداء بتلك النجوم وهو : تناقض عجيب لأنهم تركوا نفس مادل عليه الحديث واستدلوا بالحديث على مالم يتعرض له الحديث، وهو تقليدهم وتقديمهم على تقليد الصحابة وتقديمهم، مع أن قياسهم على الصحابة لا يصلح لعظم الفارق وبهذا يعلم سقوط استدلالهم بما ذكروا عن عبد الله بن مسعود قوله : ((من كان مستنا منكم فليستقن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد)) [2] والله جل وعلا يقول : ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [3] وأما استدلالهم بقوله عليه الصلاة والسلام : «عليكم

---

(١) اعلام الموقعين .

(٢) اعلام الموقعين ٢/٢٢٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٤٤ .

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي»، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» فهو حجة عليهم لا لهم، لأن سنة الخلفاء الراشدين التي حث عليها رسول الله ﷺ مقرونة بسنته ليس فيها البته تقليدا عمي ولا التزام قول رجل بعينه بل سنتهم هي : إتباع كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وتقديمهما على كل شيء، لأنهم هم اتبع الناس لرسول الله ﷺ وأشدهم حرصا على العمل بما جاء به، فالذي يقدم آراء الرجال على كتاب الله وسنة رسوله ويستدل على ذلك بحديث : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث ، هو كما ترى، وأقوال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأفعالهم كلها معروفة مدونة إلى الآن ليس فيها تقليد أعمى ولا جمود على قول رجل واحد، وإنما هي عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومشاورة لأصحابه فيما نزل من النوازل، واستنباط مالم يكن منصوصا من نصوص الكتاب والسنة على أحسن الوجوه واتقنها ، واقربها لرضى الله والأحتياط في طاعته وكانوا إذا بلغهم شيء عن رسول الله ﷺ رجعوا إليه ولو كان مخالفا لرأيهم، فقد رجع أبو بكر إلى قول المغيرة بن شعبة ومحمد بن سلمة (١) أن النبي ﷺ فرض للجدة السدس . وكان أبو بكر يرى (٢) أنها لا ميراث لها، وقد قال لها لما جاءت : (لا أرى لكِ شيئاً في كتاب الله ولا أعلم لكِ شيئاً في سنة رسول الله ﷺ) وقد رجع عمر إلى قول المذكورين في دية الجنين، أن النبي ﷺ جعل فيها غرة عبد أو وليدة، ورجع عمر أيضاً إلى حديث عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر .

---

(١) محمد بن مسلمة بن سلمة الانصري، صحابي مشهور وهو أكبر من اسمه محمد بن الصحابه مات بعد الأربعين وكان من الفضلاء ١/ع التقريب ٢٠٨/٢ .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥٢٢/٧ .

ورجع عمر أيضاً إلى قول الضحاك بن سفيان [1] أن النبي ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة اشيم الضباني من دية زوجها . ورجع عثمان بن عفان إلى حديث قريعة [2] بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ أمرها بالسكنى في البيت الذي ، توفى عنها زوجها فيه حتى تنقضي عدتها .

وأمثال هذا أكثر من أن تحصى، وفي ذلك بيان لأن سنة الخلفاء الراشدين هي المتابعة لرسول الله ﷺ ، وتقديم سنته على كل شيء فعلينا جميعاً أن نعمل بمثل ما كانوا يعملون لنكون متبعين لسنة رسول الله ﷺ .

أما المقلد المعرض عن سنتهم وعن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، مفضلا على ذلك تقليد أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رحمهم الله فما كان يحق له أن يستدل بحديث : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث وأما استدلالهم بأن عمر كتب إلى شريح : أن اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فبما في سنة رسوله ﷺ ثم بما قضى به الصالحون فهي حجة عليهم أيضاً لا لهم لأن فيه تقديم كتاب الله ثم سنة رسوله ﷺ ، ثم العمل بما قضى به الصالحون، [3] وخيرهم أصحاب رسول الله ﷺ ، ولو كان المقلدون يمتثلون هذا لما أنكر أهل العلم ولكن المقلدون المحتجين بهذا يمنعون العمل بكتاب الله وسنة رسوله والعمل بفتاوي اصحاب رسوله ﷺ ويوجبون الجمود على قول الإمام الذي قلدوه والتزموا بمذهبه، ومن كانت هذه حاله فلا يحق له أن يستدل بشيء من هذه الأدلة .

---

(1) الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب الكلابي أبو سعيد، صحابي معروف كان من عمال النبي ﷺ على الصدقات ـــ ع . التقريب ١/٣٧٢ .

(2) هي : القريعية بالتصغير بنت مالك بن سنان ـــ الأنصارية اخت أبي سعيد الخدري صحابية لها حديث قضى به عثمان ـــ وهو هذا الذي معنا ـــ ويقال لها القارعة . / ع التقريب ٢/٦١٠ .

(3) ضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ٧/٥٢٥ .

وأما استدلالهم بأن عمر رضي الله عنه منع من بيع امهات الأولاد فتبعه الصحابة . والزم الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وتبعه الصحابة . فهو ظاهر السقوط ايضاً ، وقد تقم أن موافقة الصحابة ومتابعة بعض الصحابة لبعض إنما هي لإتفاقهم فيما رووه، لا لأن بعضهم مقلد بعضا تقليدا اعمى .

أقول وبالله التوفيق : البحث طويل وأدلة اطرافه كثيرة وكل طرف يحتج بما يراه مقويا لمذهبه، والمنصف يرى من خلالها أن اصحاب التقليد محجوجون بسبب إعتمادهم في أمر دينهم ودنياهم على رجل واحد بعينه ولا يعدلون عما يقول ولا يبحثون أخطأ ما قال أم صواب .

وهذا أولاً جمود وثانياً تقصير وثالثاً تعطيل للعقل عن التفكير وللنصوص عن استعمالها فيما وردت فيه ويتخبطون لنصوص وأثار يستدلون بهما ومن جملة ما أدلوا به، وتذرعوا به قول عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب لما أحتلم خذ ثوبا غير ثوبك وكذلك استدلوا بقول أُبَيٍّ (ما استبان لك فاعمل به. وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه) ، وقالوا أيضاً أن الصحابة كانوا يفتون ورسول الله ﷺ موجود وان ذلك تقليد ومن أفتى وغلط في فتواه ردها عليه عليه الصلاة والسلام .

وقد رد على أبي السنايل بن بعكك [1] قوله لربيعة الأسلمية لما مات زوجها ووضعت حملها بعد ذلك بأيام [2] :(أنه لا تنقضي عدتها إلا بعد أربعة اشهر وعشر ليال) وقد استدل أبو السايل على ما أفتى به بعموم قوله تعالى :

---

(١) هو : ابو السنابل بنون مخففة ثم موحدة ثم لام بن بعكك بموحدة وزن جعفر وبعكك هو ابن الحارث بن عميله بالفتح، ابن السباق بن عبد الدار القرشي قيل اسمه : عمر وقيل عبد ربه صحابي مشهور ـــ د س ق/ التقريب ٤٣١/٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ٥٢٧٥٧ .

﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ [1].

وقد رد عليه النبي ﷺ فتواه مبينا أن عموم قوله : ﴿والذين يتوفون منكم﴾[2] الآية مخصص بقوله : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن أضعن حملهن﴾ وكانكاره على الذين أفتوا صاحب الشجة بأنهم لم يجدوا له رخصة وهو يقدر على الماء ، وقد تقدمت قصته والظاهر أنهم استدلوا في فتواهم بقوله : ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا﴾ وغفلوا عن قوله : ﴿وإن كنتم مرضى﴾ الآية وأمثال هذا كثيرة جداً ــ وكذلك اعتمدوا في أمر تقليدهم بقوله : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون﴾ قائلين أن الآية أوجبت قبول إنذارهم وأن ذلك تقليد وهكذا يقولون في كل آية وحديث أرادوا الأستدلال به ولو ذهبت اتتبع ما قالوه كانت الرسالة رسالة خاصة بهم وذلك غير مراد وقد اوردت في هذا البحث ما أرجوا أن يكون كافيا فيه وأسهبت فيه قليلا نظرا لكونه العائق الأول من عوائق العقل عن التفكير وأيضاً في صميم موضوعي، وكذلك كل ما فيه من جواب واعتراض عليه مدعوم بكتاب أو سنة . وهذا هو ديدن الكتاب والسنة علما بأن الناس اليوم ــ يحتاجون لما يقربهم من هذين الأصلين .

وهنا ننهي الكلام على هذا الفصل الأول العائق الأول من العوائق التي تحول بين العقل والآخذ بنصوص الكتاب والسنة وتجعله يتبع السبل المتفرقة والمؤدية إلى غير سبيل الرشاد . أعاذنا الله من ظلمات الجهل .. واتباع خطوات الشيطان .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ٦١٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ٣٣٣ .

الفصــل الثاني

أثر البيئة على العقــل

أثر البيئة على العقل

يقول الله تعالى : ﴿**والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار الأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ [1] .

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن العبد يخرج من بطن امه لا يعرف شيئاً ولا يعقله والله سبحانه هو الذي أوجد له الحواس السمع والبصر والفؤاد، وإذا كان علماء الكتاب والسنة يعرفون هذا بلاشك وشرحوه وبينوه فإن رجال علم النفس الاجتماعي استفادوا أيضاً من هذه التعليمات السماوية واستنتجوا منها أن هناك مؤثرات المؤثر الأول يبدو بالوراثة [2] والتكوين الخلقي عن طريق الخلايا التي يتكون فيها الجنين من أبويه . ويبدوا بالدوافع الفطرية كالميلْ إلى الطعام، والجنس والحياة الاجتماعية، وبالحساسية، بالمؤثرات المختلفة كالأحساس بالجوع والعطش والأنعكاسات المعنوية والتموجات الصوتية وبالقدرة على التكيف مع البيئة بشكل منتظم والقدرة على تطوير البيئة تبعا لحياته وبعض الاستعدادات الفطرية الخاصة الأخرى كالأستعداد اللغوي .

أما المؤثر الثاني فيبدوا بالثقافة وطريقة الحياة التي يعيش فيها الفرد والتي تؤثر في نمو الشخصية وتحديدها عن طريق التعود والتعليم، والواقع أن نمو شخصية الفرد لا يتم إلا عن طريق التفاعل المستمر المنتظم بين طبيعة الفردالفطرية العامة وبين المجتمع، وعن طريق هذا التفاعل يشعر الفرد بجسمه وحاجته الداخلية للغذاء والأمن ويعرف طريقة تحقيق ذلك فتتحول شخصيته إلى شخصية ناضجة متكاملة، ولا يمكن لمكملات الإنسان واستعدادته ومقوماته

---

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

(٢) علم الاجتماع تأليف : عبد الرحمن النحلاوي ١٠٣ .

ودوافعه الغريزية أن تؤدي وظيفتها في التنشئة الأجتماعية وتكوين الشخصية العقلية والسلوك الإنساني السليم حين تترك وشأنها .

أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية
في تربيـــة الإنســـان

قال تعالى :﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ [١] .

نتعرض هنا لكيفية نمو الإنسان وتكوين سلوكه كي ندرك أن القرآن ما ترك شيئاً إلا بينه لنا وقصه علينا أحسن القصص ونلاحظ في هذا الخصوص أن شخصية الطفل في الفترة الأولى تدور حول محور اللذة والألم فهو يقوم بكل تصرفاته على نحو فطري ودافعه في ذلك شعوره باللذة أو بالألم فهو يقدم على الأعمال التي تلذ له ويمتنع عن الأعمال التي تؤلمه إلا أنه ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة ثانية هي مرحلة الثواب والعقاب فهو يتأثر في سلوكه بالنتائج التي تترتب عليها فإذا كان العمل يلذ له ولكنه يعرضه لعقاب والديه فإنه يتردد في القيام به وعلى العكس من ذلك فإنه إذا كان العمل مؤلما لكنه يجلب له ثواب والديه فإنه يقوم به ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى هي : مرحلة الرضا أو سخط الناس من حوله لكنه في كل المراحل يرجع أمره إلى العادة والبيئة والعائلة التي هو فرد من أفرادها والتشابه العائلي ثابت ولا نزاع فيه وكل الدراسات التي أجريت على التشابه بين الأفراد تكشف عن بعض الشواهد الدالة على أثر العوامل العائلية [٢] في وجود هذا التشابه ففيما يتعلق بالجدل الخالد حول مشكلة الوراثة والبيئة ليس هناك من يميل إلى التشكك الجدي في دور الوراثة، [٣] بل أن الجدل يدور أساسا حول الأثر النسبي لكل من

---

(١) سورة الروم الآية ٥٤ .

(٢) علم الاجتماع ص ١٥٤ عبد الرحمن النحلاوي .

(٣) تطور نمو الأطفال تأليف الدكتور إبراهيم حافظ .

الوراثة والبيئة وحول مدى ظهور التشابه والأختلاف نتيجة للتعديلات البيئية فالأشقاء والشقيقات الذين يثبتون في نفس الأسرة تكون لهم خبرات مشتركة ووراثة متشابهة والطريقة المألوفة في دراسة التشابه هي حساب معاملات الإرتباط بين الخصائص لدى أزواج من الأفراد من أسرة واحدة .

وليس هناك من عقبة تواجه الآباء والأمهات إذ يبذلون الجهود لغرس العادات الطيبة في نفوس أبنائهم [1] أكبر من الأعتقاد بأن أثر الوراثة يعين الخلق والسلوك والشخصية تعينا لا يمكن تبديله لهذا كان من اللازم قبل أن نشرع في التعرض لتكوين العادات وإقامة الشخصية أن نُقدّم بعض الحقائق التي تتعلق بأهمية الوراثة والبيئة احدهما بالنسبة للأخرى ، ذلك لأنه لا جدوى من أن نتبع أولئك الذين يميلون إلى الخفض من شأن الوراثة في تكوين الفرد العقلي والبدني، والخلقي، ولا اولئك الذين كثيرا ما يغفلونها تماما هذا إلى أنه لا يمكن أن نحقق في هذا السبيل [2] شيئاً إذا وافقنا اصحاب المذهب الذي يؤكد تأكيداً يقينيا أن كل مظاهر التنوع في الشخصية سواء لحقت الفكر أو الخلق أو السلوك قد تحتم قيامها في الأطفال من قبل ، تبعا لما قسم لهم من اختلافات اساسية في طبائع كل منهم وقد يدفع وجود مذهبين تختلف آراء كل منهما عن الآخر اختلافا أساسياً بعيد المدى إلى

اعتقاد بأن الوراثة والبيئة قوتان تعمل كل منهما مستقلة تمام الاستقلال عن الأخرى وتنافي الواحدة منهما غيرها في السيطرة على الثانية وليس هناك من فكرة اكثر من هذه بعثا إلى الخطأ في تقدير الدور الذي تقوم به كل من هاتين القوتين في نمو الفرد منذ أن يكون مضغة في بطن امه .

يكون للبيئة على الدوام أثرها في عوامل الوراثة الكامنة فيه على أنه لا

---

(١) مشكلات نمو الأطفال تأليف : اسحاق رمزي ص ١٦ ط ٣ .

(٢) نفس المصدر السابق .

يكون لهذه البيئة أثرها إذا لم توجد في الفرد تلك الخصائص التي تلازمه عن طريق الوراثة .

ويرى بعض علماء هذا الفن (أنه لا ينبغي من ناحية الفرد أن يتجاهل أهمية الوراثة ولا التسليم بأنها تعين مصير المرء تعينا لا مفر منه، [1] ذلك لأن الميول الغريزية الوراثية هي : الجذور التي تقوم عليها الحياة البدنية والعقلية والخلقية وقد ينمو بعض الناس نموا يتفاوت في سرعته ومداه عن نمو غيرهم، ورغم أن جميع الناس يشتركون في الخصائص البشرية العامة إلا أن كل فرد يستطيع أن يقتبس من بيئته ما يميزه عن غيره وقد لا يستطيع بعض الناس أن يحقق في بعض النواحي ما يحققه غيرهم أو لا يسهل عليهم ذلك غير أن أحدا لا يمكن أن يستفيد كل ما يحتاج له من فرض النمو ومن ثم كانت المشكلة العملية هي : أن نقيم جهودنا على استخدام الخصائص النافعة التي تملك البيئة والتي تفرض على الإنسان خطا يسلكه وسبيلا يتبعه وما يكتسبه الإنسان من البيئة هو : فرع من التقليد جرى حسب العادة المتبعة في ذلك البلد .

والعادة : ميل مكتسب إلى أداء عمل من الأعمال بشكل آلي مثل الكتابة وركوب الدواب، وهي[2] نتيجة التأهيل والكسب وتمتاز بأن إستمرار الإنسان على أدائها يصل بالعمل إلى الكمال والدقة وتمتاز أيضاً بقلة الأنتباه ، ومعنى ذلك هو : إنتقال العمل من بؤرة الشعور إلى هامش الشعور، فسائق السيارة الذي يتعلم سياقتها تكون حركاته غير سديدة ويفكرمنتبها إلى كل حركة يريد أن يقوم بها فإذا تعلم القيادة فإنه يحرك يديه وقدميه دون أن يشعر ودون إنتباه وكأنه آلة تتحرك ويقصر بعض العلماء العادة على تعلم الحركة،

---

(١) مشكلات نمو الأطفال ص ١٦ ط ٣ اسحاق رمزي .

(٢) خلاصة علم النفس تأليف محمد فؤاد ط ٢ ١٩٤٨ ص ٥١ ،٥٥ ، ٥٦ .

فيخرجونها بذلك من ميدان الإدراك والوجدان، وبذلك تصبح العادة ظاهرة عضلية وتفسر العادة على هذا الأساس بأن تكرار الحركة يجعل العضلات المتصلة بهذه الحركة أكثر قبولا لتأديتها، (٢) وتمتاز العادة عن الذاكرة باعتبار أن الذاكرة ظاهرة تتصل بالمخ، ونستطيع أن نقول أن العادة ذاكرة حركية

أقول وبالله والتوفيق : إذا كان العاقل غالبا سديد التفكير محمود العمل فإننا نرى العاقل أيضاً كثيرا ما يعمل الأشياء السائدة في بيئته والتي لا يحمدالكثير منها نظرا لكونها من عادة وطبيعة تلك البيئة وهنا ندرك مدى تأثير البيئة على العقل والله المستعان والهادي إلى السبيل الرشاد .

والواقع أن التكرار المتواصل يضيف تغيرا ولو طفيفا على شكل العادة، خصوصا إذا صحب التكرار قليلا من الانتباه والشعور وإلى جانب ذلك نجد بعض العادات تصل في حالة الثبات إلى درجة من الجمود حتى تنزل منزلة الطبع ولذا قيل : العادة طبيعة ثانية ، وكثيرا ما يحاول صاحب العادة أن يعدلها ولكنه لا يستطيع ، لأن العادة تمكنت من نفسه وطبعت جهازه العصبي بطابع عميق، كصاحب الخط الرديء الذي يجمد فلا يستطيع تحسينه أما الأسباب التي تدفع الإنسان إلى تغير عاداته فمرجعها إلى ملاءمة نفسه بالبيئة، فالوسط الذي نعيش فيه دائم التطور والتغير وهناك ظروف على المرء أن يتلاءم واياهاوقد شاهد العلم كله ظواهر واضحة تدل دلالة ظاهرة على مقدار اثبات العادة والصعوبة في تعديلها والتخلص منها وضرر العادات المتأصلة تبعا لذلك .

أقول وبالله التوفيق : لا ريب أن البيئة الجغرافية والاجتماعية لهما أثر ملحوظ على العقل ففي الطقس الحار يندفع الإسنان إلى الخمول وفي الطقس البارد يندفع إلى الحركة والبيئة البدوية تقف بالعقل عند مبلغ ما وصلت إليه

---

(١) نفس المصدر السابق : ١٦ .

تلك البيئة من تحضر ـــ والبيئة المتحضرة المليئة بالثقافات عديـدة الألـوان تلقـى من العقـل إستجابة ولا شك أن الأدب والفنـون والفكـر والنظـر ملكـوا ذلك التعرف على الحقيقة ومرونـة الخيـال وكل هذا غذاؤه الحس ومكـان ذلك هو : البيئة ، والبيئة عمل من الأعمـال الطبيعية يختلف باختلافها في كل قطر صوابا أو خطأ

وتأمل قول الله عز وجل في بلقيسه : ﴿وصدها ما كانت تعبـد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾[1] فوجودهـا مع الكفـرة قد أثـر فيها وصدهـا عن التأمـل والتدبر ومـن ثم تعين على المصلـحين أن يبـدؤا في إصلاحهـم بإصلاح البيئـة التـي هي المنـاخ الطبيعي لمأخـذ العقـل فإن بقـيت غير صالحة كان منهل العقل منها مشوبا بالتلـوث والقـذر وقـد بدأ رسـول الله ﷺ بإصلاح البيئة فطهرها من الأوثان ليبـدأ العقـل الاستقـلال الصحيـح الـذي يحفـظ عليـه مداركه السليمة والعقـل يكـاد يكـون هو المميـز للإنسان عن سائـر الحيوانـات بعد قلبه الذي هو مهبط إلهامه والإيحاء إليـه : ﴿ان شر الـدواب عنـد الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ [2] فإذا جمد الإنسان بعقله وانعـزل عن التـأثير والتأثر بالبيئة اصبح ذلك الإنسان لا يلـد حركـة ينتفـع بها الأعقـاب وإذا لم يتطـور كما يتطور الأخرون عشت في عصرك غريب العقـل أجنبـي الشعـور وحشي الثقافـة وإذا توقفت البيئة عن التطور الملائم لعصور الحيـاة أصبـحت متخلفـة هامـدة لا تبـعث في العقـل حيـاة والحقيقـة أن البيئـة مرآة للعقـل وهـو : مرآة لها يقابلهـا فكل ما طبع في هذه أنطبـع في تلك وعلى الإنسان أن يعـدل ماليس يلائم سواء كان ذلك في البيئـة أم في العقـل والبيئـة للعقـل غذاء فإذا لم يكـن هذا الغـذاء صالحا للتغذية تعرض العقل للأصابة المهلكـة التـي على أقـل تقدير تضعـف من حركته وشعوره هذا وإذا كنـا أدركنـا أن البيئـة لها تأثير على المرء مبـاشرة فإنـه

(١) سورة النمل الآية ٤٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

لا يفوتنا أن المؤثر الحقيقي في البيئة والمرء نفسه هو الله الواحد الأحد مكور الليل على النهار ومكور النهار على الليل وهو الذي إذا شاء تأثير أي شيء أثر ذلك الشيء في الحال سواء في ذلك البيئة في العقل أو العقل في البيئة .

أقول وبالله التوفيق : مما يدلنا على تأثير البيئة دلالة واضحة، ما ثبت في الصحيحين من حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً[1] . والحديث رواه أبو سعيد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجلا قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض . فدل على راهب فأتاه فقال : أنه قتل تسعة وتسعون نفسا فهل له من توبة؟ فقال : لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : أنه قتل مائة نفس فهل من توبة؟ فقال : نعم. ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب أنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم — أي حكما — فقال : قيسوا ما بين الأرضين إلى أيتيهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» .

هذا الحديث وإن كان في باب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل والرجوع اليه . والرسول ﷺ قاله مرغبا في التوبة ومبينا صغر الذنب وإن

---

(١) رياض الصالحين بشرح دليل الفالحين للإمام النووي ١/١٣٣/١٣٤/١٣٥ .

(٢) أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري ، أبو سعيد الخدري استصغر يوم احد ثم شهد ما بعدها له ولأبيه صحبة وقد روى الكثير من الأحاديث مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين وقيل اربع وسبعين /ع التقريب ٢٨٩/١ .

عظم في جنب عفوه سبحانه وتعالى إلا أنه كذلك له مساس قوي بتأثير البيئة وتأثيرها حيث أمر العالم الرجل بالأنتقال إلى مدينة غير المدينة التي كان يقيم بها وقد بين له أن أهل هذه المدينة أهل سوء، وأن تلك المدينة الأخرى يسكنها ناس طيبون فلابد أن يتأثر بذلك الجو الجديد الطيب الذي صلح سكانه وسلموا من فعل الخبائث، والعالم طلب من الرجل أن يفارق دار الفساد وأصحابه الذين يعينونه عليه وهذا يفيد الانقطاع عن أصحاب السوء ماداموا على حالهم واستبدالهم بصحبة أهل الخير والعلم والصلاح والعبادة والورع ، ومن يقتدي به وينتفع بصحبته لتتأكد بذلك توبته [1].

فإن كل قرين يقتدي بقرينه، وفعلا لبى الرجل الأمر وانطلق تائبا من زلته مفارقا لمحلته، قاصدا لما أمر بالرحيل إليه، ويشهد لهذا الحديث الآخر مثل الجليس الصالح مثل العطار، ان لم يصبك من عطره أصابك من ريحه[2]، قال المناوي : في ضمنه ارشاد إلى الأمر بمصاحبة من ينتفع بمجالستهم في دينك من علم تستفيده أو عمل يكون فيه أو حسن خلق يكون فيه أو حسن خلق يكون عليه، فإن الإنسان إذا جالس من تُذكره مجالسته الأخرة فلابد أن ينال منه بقدر ما يوفقه الله بذلك، وفي هذا دليل أيضاً على أن التأثير يحصل بالمقارنة والجيرة والسكن وجميع الأختلاط والحديث المذكور أشار له السيوطي بالصحة ووافقه المناوي، وقال الحاكم أنه صحيح وأقره الذهبي .

وهذا الحديث والذي قبله بين به النهي عن مجالسة من يتأذى بمجالسته والترغيب فيمن ينتفع بمجالسته .

قال الراغب : نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم فهي قد تجعل الشرير خيرا كما أن صحبة

---

(١) نفس المصدر السابق ١٣٦/٧ .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥٠٧/٥ .

الأشرار قد تجعل الخير شريراً .

قال بعض الحكماء : [1]من صحب خيرا اصاب بركته فجليس أولياء الله لا يشقي، وأن كان كلبا ككلب اصحاب الكهف ولهذا أوصوا أهل العلم بالبعد عن مجالسة السفهاء .

قال علي كرم الله وجهه : لا تصحب الفاجر فإنه يزين لك فعله ويود لو انك مثله . وقالوا : إياك ومجالسة الأشرار فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري ، وليس إعداء الجليس جليسه بما قاله وفعله فقط بل بالنظر اليه، والنظر في الصور يورث في النفس أخلاقا مناسبة لخلق المنظور اليه فإن من دامت رايته للمسرور سر. أو للمحزنون حزن وليس ذلك في الإنسان فقط بل في الحيوان فمن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بالجفة فما الظن بالنفوس البشرية المستعدة لقبول صور الأشياء خيرها وشرها ؟

وقد قيل سمي الإنسان لأنه يأنس بما يراه خيراً أو شراً .

أقول وبالله التوفيق : على أي حال حديث الباب الذي معنا شاهد لنا على صحة ما قدمنا في شأن البيئة ولا يسأل عن صحته فقد اخرجه الإمام البخاري [2] قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن عدي عن شعبة عن قتادة عن أبي الصديق التاحي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «كان في بني اسرائيل رجلا قتل تسعة وتسعين نفساً» الحديث قد تقم بتمامه وهو شاهد لما نحن فيه من تأثير البيئة ــ والفاظ الحديث فيها اختلاف بسيط في بعض العبارات كقوله «فناء بصدره» وقوله «أقرب بشبر» يعني نحو الأرض الطيبة والغرض عندي من إيراد هذا هو أن الرجل وهو في سكرات الموت حاول وهو في اللحظات الأخيرة من الوقت الحرج أن يكون أقرب

---

(١) نفس المصدر السابق ٥٠٧/٥ .

(٢) البخاري ٣١٣/٤ محمد على اصبيح واولاده بالأزهر ــ مصر .

إلى هذه الأرض التي فيها الجو الصالح للإسلام ، ويتأثر فيها المسلم بعمل الآخرين من إخوانه المسلمين سكان تلك البقعة، وكان العلماء الصالحون يرغبون في قرب أهل الخير والتأسي بأفعالهم ولهذا وجبت الهجرة في بدء الإسلام إلى دار الإسلام المدينة المنورة .

وما ذاك إلا للتأثر بالبيئة الصالحة ولا يمكن أن يقوم الفاسد ببلد صالح وأهله صالحون ولا يتأثر بهم بل لابد من خروجه إذا اراد الله له الاستقامة على الشر لأن البلد الطيب ينفي الخبث كما ورد عن طيبة .

قال البخاري :[1] حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن يحيى بن سعيد قال : سمعت أبا الحباب سعيد بن يسار يقول سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب وهي المدينة : تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد» .

قال في الفتح : المراد بالناس الاشرار منهم وقرينته ارادة الشرار من الناس ظاهرة من التشبيه الواقع في الحديث،والمراد بالنفي الأخراج ولو كانت الرواية تنقي بالقاف لحمل لفظ الناس على عمومه أمرت أي : أمرني ربي بالهجرة اليها أو سكانها فالأول محمول على أنه قاله بمكة : والثاني على أنه قالها بالمدينة، والغرض من إيراد هذا الكلام هو : إثبات تأثير البيئة بإذن الله تعالى وبيان أن الإنسان ضعيف يحتاج إلى بئة تعينه على فعل الخير والدوام عليه ومأمور بالتوجه اليه .

قال الإمام مسلم [2] : حدثنا محمد بن العلاء الهمداني — واللفظ له، حدثنا أبو اسامه عن بريد [3] عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال :

---

(١) فتح الباري ٤/ ٨٧ ط السلفية .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) بريد بن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري الكوفي ثقة يخطيء قليلا من السادسة /ع/ التقريب ٩٦/١ .

«إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة» . وهذا من تأمله يجد تأثيراً حقيقياً ملموساً .

قال صاحب إكال الأكال شرح صحيح مسلم[1]: في هذا التمثيل حض على صحبة العلماء وأهل الدين ومجانبة خلان السؤ وحصر التقسيم في الجليسين ليس هو بمانع الخلو لأن المراد بالصالح الصلاح المتعدي نفعه للغير ــ وبالسوء السوء المتعدي ضررهُ للغير ــ لقوله: «إما أن يؤذيك أو يحرق ثيابك وإذا كان كذلك فقد يوجد جليس لا يضر ولا ينفع، وقرين السؤ إن لم يحفظ الله العبد فلابد من تأثيره به ولهذا المعنى قال تعالى : ﴿قال قائل منهم اني كان لي قرين يقول أءنك لمن المصدقين أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمدينون قال هل انتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم قال تالله ان كدت لترديني ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ [2].

وهذا يدل على متانة التأثر وإن هذا الإنسان ما منعه من الأنحراف في ذلك السؤ الذي كان فيه صاحبه الذي رآه في سواء الجحيم إلا عناية الله سبحانه وتعالى وتوفيقه كما قال تعالى حاكيا عنه :﴿فلولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ : الهالكين في النار بسبب أرتكاب السؤ في دار الدنيا .

قال القرطبي [3]: «لولا نعمة ربي» أي : عصمته وتوفيقه بالأستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السؤ، وقوله ﴿لكنت من المحضرين﴾ قال الفراء لكنت معك في النار محضرا، وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر قاله الماوردي .

---

(١) إكال الأكال شرح صحيح مسلم ٦٤/٧ .

(٢) صورة الصافات الآية ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٨٤/١٥ ط دار الكتب العربية للطباعة والنشر .

وقال تعالى لنبيه ﷺ آمرا له باتباع المرسلين والتأسي بأفعالهم وأقوالهم [1] : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقد جاء في الفتح قال ابن عباس : نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدي بهم .

قال ابن حجر : [2] حاصله أن الزيادة لفظية وإلا فالكلام المذكور داخل في قوله في الرواية الأولى «وهو منهم» أي داود ممن أمر نبيكم أن يقتدى به في قوله تعالى : ﴿فبهداهم اقتده﴾ وقد حصل الخلاف هل كان ﷺ متعبدا بشرع من قبله حتى نزل عليه ناسخه؟ فقيل : نعم وحجتهم هذه الآية ونحوها، وقيل لا واجابوا عن الآية بأن المراد اتباعهم فيما انزل عليه وفاقه ولو على طريق الأجمال فيتبعهم في التفصيل وهذا هو الأصح عند كثير من الشافعية واختاره إمام الحرمين ومن تبعه واختار الأول ابن الحاجب والله أعلم .

وقد نقلنا هذه الفائدة والغرض الذي جر اليها هو اتباع أهل الفضل والتأثير بهم كما أن الجو الصالح لاشك في تأثيره ومما يدلنا على صحة ذلك أن الأصحاب رضوان الله عليهم لما أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة وجدوا جوا صالحا ملائما للدعوة والأستعداد للقتال فبدءوا يتسلحون للمطلب الثاني الذي هو إعلاء كلمة الله بقوة السيف وإنقاذ المستضعفين الموجودين في مكة الذين لا حيلة لهم لأنقاذ أنفسهم، وندرك أيضاً من خلال هذا أن الأنصار رضوان الله عليهم تأثروا بهذه البيئة الصالحة . والأنفس الزكية فاصبح الواحد منهم يقاسم المهاجر ماله وأهله ويتنافسون في ذلك وقد وصفهم الله بذلك فقال · ﴿يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ .

---

(١) فتح الباري ٢٩٤/٨ /٢٩٥ .

(٢) عمدة القاريء شرح صحيح البخاري ٥/٨ .

قال البخاري : حدثنا إسماعيل ابن عبد الله قال : حدثني إبراهيم بن سعيد عن أبيه عن جده قال [1] : لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن أني أكثر الأنصار مالا فاقسم مالي نصفين ولي أمرأتان فانظر اعجبهما اليك سمها لي اطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها، فقال بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم فدلوه على سوق بني قينقاع [2].

وهذا النوع من الاندفاع في بذل المال والأهل وإن كان الدافع الحقيقي هو قوة الإيمان وإيثار الدار الآخرة فإن البيئة كذلك لها فيه عامل التأثير حيث يجد اخوانه من حوله يتسابقون لفعل هذا النوع من الخيرات ولهذا اعجب النبي ﷺ هذا التنافس والتأثر بفعل الخير والتسابق له حتى قال ﷺ : «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار» أخرجه البخاري قال في شرح العين ليس المراد منه الأنتقال عن النسب الولادي، ومعناه لولا أن الهجرة أمر ديني وعبادة مأمور بها لانتسبت إلى داركم والغرض منه التعريض بأنه لا فضلية اعلا من النصرة بعد الهجرة وبيان أنهم بلغوا الكرامة مبلغا لولا أنه من المهاجرين لعد نفسه من الأنصار، وهذا أيضاً وإن كان في فضل الأنصار وما قاموا به من التسابق في فعل الخير فإنه كذلك يدلنا أن الجو الصالح الديني يؤثر في سكان تلك الأرض كما هو مشاهد معروف ونظرا لهذا وجبت الهجرة في أول الإسلام وإن كان الغرض الأول تكثير سواد المسلمين فإنه كذلك فيه التأثير إذ كان السواد الأعظم هو أهل الخير فإنه يقل شذوذ الناس عن الجادة والله أعلم .

ولا مانع أيضاً من أن يكون التنافس نوع من التأثر بالبيئة يدلنا على

(١) نفس المصدر السابق ج٨ ص ٥ .

(٢) حي من اليهود كان يسكن المدينة المنورة .

ذلك أن الأوس [1] لما قتلـــــوا عدو الله كعب بن الأشرف اليهودي قالت الخزرج لابد لنا من قتل عدو آخر لنبي الله ﷺ فقاموا بقتـل أبي رافـع اليهودي وهذا تأثير بالبيئة الصالحة .

أقـول وبـالله التوفيـق : لاشك أن التنـافس في أمـر الديـن والتسابـق إلى الخيرات يعين عليـه محيـط الإنسان وبيئتـه، يدلنـا على ذلك حديث البخـاري الذي تقدم والمتعلق بالرجل الذي قتـل تسعـة وتسعين نفساً ـ فإن العـالم الثـاني أرشده إلى قرية أهلهـا صالحون وأمـره بفـراق الأولى لينضم إلى جماعـة مسلمـة يتأثر بها ووقع ذلك ـ وحصلت نتيجته كما ظهر في آخر القصة .

ووجوب الهجـرة في أول الإسلام والأمـر بها وطـلبها من كل من أسلـم من هذا الباب وعن جرير بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فاسرع فيهم القتل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل ، وقـال : أنـا بريء من كل مسلـم يقيم بين أظهـر المشركين قالـــوا يارسول الله ولم :؟ قال : «لا تتراء ناراهما» . رواه أبو داود والترمذي [2] .

قال الشوكاني في النيل : حديث جرير أخرجه ابن ماجه ورجـال اسنـاده ثقات، ولكـن صحـح البخـاري وأبـو حاتم وأبـو داود، والترمـذي والدارقطنـي إرسالـه إلى قيس بن أبي حازم [3]، ورواه الـطبراني أيضاً موصولا، قال الخطـابي وغيره : كانت الهجـرة فرضا في أول الإسلام على من أسلـم لقلـة المسلـــمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع، وقوله : «لا تتراءى نارهما» .

---

(1) عمدة القاري، شرح صحيح البخاري ج١٧ ص ٣٠٧ .

(2) نيل الأوطار ج٨ ص ٢٨ .

(3) قيس بن أبي حازم البجلي أبو عبد الله الكوفي ، ثقـة من الثامنـة مخضرم، يقـال له رؤيـة، وهـو الـذي يقال أنـه اجتمـع له ان يروي عن العشرة، مات بعـد التسعين أو قبلهـا وقـد جاوز المائة وتـغير/ ع تقريب ج٢ ص ١٢٧ .

يعني : [1] لا ينبغي أن يكونا بموضع بحيث تكون نار كل واحد منهما في مقابلة الأخرى على وجه لو كانت متمكنة من الأبصار لأبصرت الأخرى وهذا فيه الحث الشديد على مجانية الكفار والأقتراب من المسلمين وذلك راجع باللازم على التأثر بالبيئة لأن أخلاقهم الحميدة وتسرب عاداتهم السليمة يؤثر في الإنسان على أية حال بخلاف مقارنة المشركين فإنها عادية وضارة بالسوء كما يعد الأجرب الصحبح والأحاديث كثيرة جداً والآيات في التخويف من أهل السوّ والخوف من التأثر بأفعالهم ـــ والترغيب في أهل الفضل وفي مجالستهم وفي باب الهجرة نصيب من ذلك كثير، وقد جاء في مسند داود من حديث سمرة ابن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله» رواه أبو داود قال : الذهبي : اسناده مظلم لا تقوم بمثله حجة .

أقول وبالله التوفيق : هذا الموضوع فيه تفصيل لا ينبغي إقفاله، لأن الهجرة أول الإسلام واجبة ومعنى الحديث منصب على هذا الوجوب كقوله تعالى : ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولا يتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ [2] وذلك مقصد الشرع فيه تكثير سواد المسلمين وتقوية شوكتهم وهذا أمر لزاما على كل مسلم آن ذاك القيام به ، أما بعد الفتح وإنتشار الإسلام فلا هجرة ولكن جهاد وتضحية .

ولا يفوت عليَّ هُنَا أن ننبه زملائي وإخواني ان مقام المسلم بدار الكفر وبين الكفرة الفجرة أمر مفضول وخلاف الأولى وفيه إهانة لا تخفى على من نور الله بصيرته لما يجر له ذلك المقام من التأثر بأطباعهم الخبيثة، وقد ورد أن الطبع يسرق من الطبع كما يسرق أحدكم من صاحبه، وهذا بالإضافة إلى أن المأكل والمشرب وجميع ضروريات الحياة كل هذا يصعب على الإنسان

---

(1) نيل الأوطار ج٨ ص ٢٨ .

(2) سورة الانفال الآية ٧٢ .

التأكد بصفة صحيحة من طهارته، والمسلم مسؤول عن طيب هذا كله وأين وكيف يطيب ببلد أهله شربهم الخمر وأكلهم الخنزير . ولا يعرفون الطهارة ولا يقيمون لها وزنا فاعتبروا ياأبناء المسلمين، وحافظوا على دينكم وأخلاقكم تفوزوا في مطالبكم الدنيوية والأخروية وقال الشوكاني في النيل : وقد أطلق ابن التين أن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت واجبة وان من قام بمكة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بغير عذر كان كافرا .

قال الحافظ : وهو إطلاق مردود، والآية التي ذكرنا آنفا قطعت الموالاة بين من هاجرو من لم يهاجر حتى يهاجر وذلك وان كان السبب الأول تكثير سواد المسلمين والقتال معهم والخوف من أن يفتن عن دينه ، فكذلك التأثر بالبيئة الصالحة داخل [1] في هذا الباب دخولا أولياً ولهذا نجد المرأة إذا زنت تجلد ولا تنفي خوفا عليها من الضياع وفي مقدمة الضياع البيئة الفاسدة فلا تحصل الغاية المطلوبة بهذا النفي بل تحصل المضرة، وإن كان عدم التغريب غير متفق عليه .

فظاهر أحاديث التغريب أنه ثابت في الذكر والأنثى وإليه ذهب الشافعي وقال مالك لا تغريب على المرأة لأنها عورة وهو قول الأوزاعي ومروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وليس غرضي هنا بسط الخلافات الفقهية وإنما الغرض بيان البيئة لأنه من أهم العوامل المانعة من تغريب المرأة الخوف عليها من الضياع وفي مقدمة ذلك الضياع تأثيرها ببيئة فاسدة فتفسد ويضيع الغرض المطلوب بالتغريب .

وعلى أية حال نعود قليلا إلى التغريب حيث هو ثابت في الأحاديث ومن تلك الأحاديث حديث العسيف الذي زنى قال فيه : واني سألت أهل العلم فأخبروني أن على أبني جلد مائة وتغريب عام . رواه الجماعة .

(١) نيل الأوطار ج٧ ص ٩١، ٩٢، ٩٣ .

وحديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد جائة وتغريب سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» رواه الجماعة إلا البخاري والنسائي .

قال الشوكاني [1] : ان التغريب المذكور في الأحاديث شرعا هو إخراج الزاني عن موضع إقامته بحيث يعد غريبا والمحبوس في وطنه لا يصدق عليه ذلك الأسم وهذا المعنى هو المعروف عند الصحابة الذين هم أعرف بمقاصد الشرع، فقد غرب عمر من المدينة إلى الشام وغرب عثمان إلى مصر، وغرب ابن عمر أمته إلى فدك .

أقول وبالله التوفيق : التغريب لابد أن يكون في بلد لا يعرف المغرب أهله ولا عاداتهم ولا أخلاقهم لأن هذه الأوصاف هي التي تتمثل فيها الغربة ويعدم الانسجام لأن معرفة عادة البلد وأهله وأخلاقهم يؤدي ذلك للأنسجام معهم وهذا يفوت المطلوب من التغريب وربما أدى إلى العكس والله أعلم . والإنسان من الصعب عليه ترك العادة التي ورثها من بيئته وتأثر بها واعتادها لذلك لا يحسن التغريب إلا في مكان يجهل الإنسان ما فيه من عادة ولا فرصة له تؤهله للإندماج مع ذلك المجتمع [2] إلا بعد وقت طويل .

قال القرطبي في قوله : ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾[3] ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به قال ابن عباس : ﴿أولياء بعض﴾ في الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من هاجر فنسخ ذلك بقوله : ﴿وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وقيل ليس هنا نسخ وإنما معناه في النصرة والمعونة والمراد عندي من ايراد هذه النصوص هو : بيان قوة وتأثير اللفيف المسلم بعضه ببعض حتى

---

(1) نيل الأوطار للشوكاني ج٧ ص ٩٣ .

(2) تفسير القرطبي ج٨ ص ٥٦ .

(3) سورة الأنفال الآية ٧٢ .

وصل إلى هذه الدرجة التي هي من اختصاص ذوي الأرحام بفضل الله ثم بتأثير البيئة الصالحة .

هذا وإذا كنت بينت أن للبيئة أثرها في الأشخاص[1] والاتجاه والدين والتأسي الشديد بكل أنواعه وأوردت على ذلك ما يشهد له من نصوص الكتاب والسنة فيجدر بي أيضاً بيان أهمية البيئة، فيما يتعلق بحياة الإنسان نفعا وضرا ومؤثرات البيئة الطبيعية ونقصد بالطبيعية كل ما يتعلق بالمنطقة التي يعيش فيها الإنسان من حيث التكوين والموقع الجغرافي وما يحيط به من ظروف طبيعية ومناخية وما يشتمل عليه باطن أرضها من مواد أولية فقد لعبت هذه العوامل دورا هاما وأساسياً في الحياة الاجتماعية وقيامها ومشاكلها إلى حد ما وفقاً لمقتضياتها لاسيما في حالة الفطرة حيث هي : جزء لا يتجزأ من البيئة التي يعيش فيها ولا يجد بدا من الخضوع لأحكامها ولكنه استطاع أن ينفصل عنها نسبياً كلما تطور وارتقى ولهذا الموضوع أمثلة كثيرة نقتصر منها على البعض .

أولاً : كانت الناحية الاقتصادية أكثر نواحي الاجتماع الانساني خضوعا لمقتضيات البيئة لأن طبيعة الأرض هي التي تحدد نوع الإنتاج للفرد وذلك له سبيله فحيث المناجم يزاول الناس الصناعة وحيث أودية الأنهار يتجهون إلى الزراعة وحيث المروج يؤثرون رعي الأنعام وللمناخ تأثير مباشر على الشئون الاقتصادية المتعلقة بالأنتاج ، فالإنتاج الزراعي يتوقف على حالة الجو لأن كل نوع من النبات يتطلب مناخاً خاصاً، [2] ويتوقف الانتاج الصناعي كذلك على حالة الجو لأن لكل صناعة جوا يلائمها، وللمناخ تأثير مباشر على حركة البضائع .. ولا يمكننا أن نقلل من شأن الموقع الجغرافي

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه : الدكتور مصطفى الخشاب ــ دار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٣٨ .

(٢) علم الاجتماع ومدارسه للدكتور مصطفى الخشاب ١٣٨ .

للبيئة ومبلغ أثره في الناحية الاقتصادية فالبلاد الساحلية يتجه سكانها إلى التجارة والصناعة وزيادة حركة النقل ، ويحفزهم موقع بلادهم على النشاط والأقدام .

بينما البلاد الأخرى ليست كذلك، وكانت الناحية السياسية كذلك من أهم نواحي الاجتماع الانساني خصوصاً الأحكام البيئية هي التي تحدد حجم الدولة فالجبال والبحار والصحاري تمنع من التوسع في التقدم، [1]أما السهول والأودية فتتيح الفرص للغزو والتوسع الداخلي ولذلك كانت هذه السهول ميدان الصراع بين الأجناس منذ القدم، وللجو تأثير كبير على الوضع السياسي فالبلاد الحارة مصابة بالكسل والخمول ورغم وفرة الخيرات فهي لا تقل في الناحية الأخلاقية عن الناحية الاقتصادية والسياسية فيها مبلغ تأثرها بظروف البيئة فللمناخ تأثير كبير على الحياة الوجدانية وعواطفها وغرائزها .

وأثرت البيئة كذلك في مختلف شئون العمران وأهمها التوزيع السكاني فنلاحظ أن الأودية والسهول استهوت الأجناس القديمة ولذلك تمتاز بكثافتها السكانية، وخضع نظام الأسرة كذلك لمؤثرات البيئة إذ نلاحظ في البلاد الحارة التبكير بالزواج بينما سكان المناطق الباردة والمعتدلة لا يلجؤن اليه إلا في سن متأخر نسبياً . وتأثرت مستويات الصحة العامة بظروف البيئة فالبلاد الحارة مصابة بانتشار الأمراض والأوبئة، وكذلك أثرت البيئة في القدرة على التفكير والأبداع والغنى وأثرت في الوان التسلية والهواية ويبدو أن المؤثرات البيئية التي أشرنا إليها أستهوت طائفة من المفكرين الاجتماعيين فبالغوا في تقديرها وذهبوا إلى أن البيئة الطبيعية هي التي تكسب الجماعات خصائصها ومقوماتها الذاتية وهي التي تقرر ما تكون عليه حالة الجماعة سياسياً واقتصادياً وأخلاقياً واسريا ولا تستطيع الجماعة الإفلات من مقتضياتها ولا ترى مندوحة من الخضوع أسيرة لأحكامها ويذهب إلى هذا الرأي العلامة ابن خلدون فيقرر أن البيئة الجغرافية هي : السبب المباشر في اختلاف البشر

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه ج١ ص ١٥٥، ١٥٦ .

جسمياً وعقلياً ونفسياً وحيوياً وإدراكا وهي التي تميز المجتمعات في تقاليدها وعاداتها وشئونها السياسية والدينية والاقتصادية والعائلية [1] وعلى كل حال لابد من تقدير البيئة وأن لهامًا تفرضه من جبرية على نظم المجتمع [2] وخاصة شئون التشريع والعادات والتقاليد ونظم الأقتصاد والمستوى الحضاري والنزوع إلى الحرب أو السلم.

ونسب إلى البيئة الجغرافية الفضل في تثبيت دعائم الحكم الديمقراطي في المدن القديمة [3] هذا وقد أحتل موضوع البيئة مكان الصدارة في المناقشات التي أثيرت حول العوامل المؤثرة في حياة المجتمعات ولاسيما بعد ظهور (دارون) لأنه قرر أن البيئة عامل هام جداً من العوامل المؤثرة في بقاء النوع وتطوره وتحمس الكثيرون من أتباعه وذهب إلى أن تباين أمة وأخرى سواء في التفكير أم في شئون الاجتماع يرجع إلى ما خضعت له كل أمة من مؤثرات البيئة كأن البيئة هي المعلم الأول للأنسان القديم هدته وأرشدته إلى ما ينبغي عمله حين كان الانسان قطعة من الأرض التي يعيش عليها، ولكن تطور الفرد ثقافياً واجتماعيا جعله ينفصل شيئاً فشيئاً من اسرة البيئة .

والدراسات الإنسانية في جملتها تؤيد تناقض أثرها في حياة الإنسان الحديث وأصبح هذا الأثر يتناسب تناسباً عكسياً مع درجة ثقافته ومبلغ نصيبه من الحضارة .

أقول وبالله التوفيق : هذه النظرة أهملت جهد الفرد وما اعطاه الله من المواهب والعقل الذي يميز به بين النافع والضار وهذه النظرة جعلته قطعة من الأرض التي يعيش عليها كأن البيئة هي التي ترشده وتهديه إلى سواء السبيل وليس كذلك فإن الإنسان بعقله وبإدراكه ذلك فالله هو الذي سخر له كل

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٨، ١٠٢ المطبعة الشرقية ١٣٢٧هـ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٨، ١٠٢ .

(٣) علم الاجتماع ومدارسه ج١، ص ١٥٧ .

شيء بعد أن خلقه لا يعرف شيئاً كما قال تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ [1] وعلمه الله كل شيء مما يحتاجه فالإنسان اذن يؤثر بدوره في البيئة كما يتأثر بها وقد استطاعت المجتمعات بفضل الله ثم بفضل ما توصلت إليه من وسائل الأختراع والكشف تغيرت بعض ظروف البيئة وتقهر سلطانها وتذلل صعوباتها وتشكلها حسب رغبتها، فشقت الأنفاق وجففت الأنهار والبحيرات وعبرت الصحاري واستحدثت وسائل المطر الصناعي[2] وغيرت مجاري الأنهار ومصابها وما إلى ذلك من الأمور التي تدل على تدخل إيجابي من داخل المجتمعات لتكيف البيئات التي يعيش فيها الإنسان ومع التسليم بأن البيئة من العناصر الفعالة في قيام الحياة الاجتماعية وفي تعجيل أو تأخير تطورها غير أنها لا تعتبر عاملا حاسماً . لأن تطور الحياة الاجتماعية يسير بخطى سريعة جداً بينما تطور الوسط الجغرافي لا يكاد يتزحزح عن أوضاعه منذ آلاف السنين .

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج١ ص ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧ .

البيئة الإجتماعية

يرجع الفضل إلى الله ثم إلى البيئة الاجتماعية في تنشئة الفرد وتوجيهه والإشراف على سلوكه وتلقينه ما وصلت إليه من ثقافة أي : أنها لا تقتصر على أن توفر له حاجياته الضرورية ولكنها تؤدي له أخطروأهم وظيفة وهي : نقل التراث الاجتماعي والثقافي ويبدو ذلك واضحا في حالات الطفولة لأن الطفل يولد وهو عبارة عن كتلة من الغرائز والاستعدادات ووظيفة البيئة الاجتماعية (ممثلة في الأسرة) أن تعلمه لغاتها وتاريخها وعاداتها وعرفها وتقاليدها ومعايرها في الأخلاق والأذواق والآداب العامة ومظاهر السلوك الخاص والعام وما إلى ذلك من الأمور حتى تخلق منه كائنا اجتماعيا يستجيب لمؤثرات البيئة ويخضع لأحكامها ونظمها فالاسرة في ضوء هذا الأعتبار هي الوسيط الأول بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه، وهي نقطة تحول في تاريخ الحضارة وغني عن البيان أن الفرد في مراحل نشأته الأولى يكون مرتبطاً بقيود البيئة الأجتماعية وحانقاً على بعض أوضاعها ويضيق ذرعا بما تفرضه عليه وذلك كله لأنه لم يألفها بعد [1] .

ومن تأثير البيئة على العقل ما كان سائداً في العرب من أكل الربا ويقول الله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [2] . والآية صريحة الدلالة على أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الرباء يأكلونه اضعافا مضاعفة وأنه كان عند العرب عملا تجاريا حلالا كالبيع فظل هذا المفهوم مستقرا بعد الإسلام في أذهان المسلمين الذين

---

(١) سيرة الرسول صور من القرآن ج٢ ص ٣٧١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٠، ١٣٢ .

تعودوه [1] وهذا مع أن النفس تشمئز منه إلا أن البيئة أثرت على العقل هنا حتى هان على الإنسان عمل هذه الأشياء وإرتكابها فحصلت السيطرة على العمليات التجارية ، حتى لا يوجد أحد يأنف عن هذا وقد حكى الله تعالى عنهم قولهم : ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ [2] وهنا نجد أن المرابين كانوا يستغلون اعسار المدينين فيضاعفون رباهم وأنه كان لذلك عواقب شديدة الضرر في هؤلاء وقد نزلت الآية لمعالجة الموقف بعد الاسلوب اللغوي المناسب مع شدة الضرورة ولتكون في الوقت نفسه تشريعا قويما مستمر المدى في المجتمع الإسلامي ليحول دون ذلك الضرر وتلك العواقب والمؤثرات البيئية التي اثرت فيها البيئة على العقل حتى منعته من حسن التصرف والتسامح نظرا للمؤثرات التي حوله قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الرباء إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ [3] .

أقول وبالله التوفيق : هذا الصنف من الناس كان يضيف إلى هذه الأعمال الشنيعة عملا آخر هو أشد منها بشاعة ومرارة علماً بأنه سائد في البيئة الشيء الذي هون على النفس إرتكابه الا وهو : وأدُو البنات : قتلهن أحياء ــ فإن الكثير منهم كان تأثير البيئة حافزا له على دفن ابنته حية لأن الضغط الجماعي من الصعب الذي لا يمكن لأي أحد الخروج عليه إلا بتوفيق الله وإن كانت هناك حوافز اخرى كخوف الفاقة والعار ــ والسبي وما إلى ذلك ولكن هذا كله راجع باللازم إلى تأثير البيئة على عقلية الأشخاص . والله أعلم .

---

(١) نفس المصدر السابق ج٢ ص ٣٧١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٨ ــ ٢٨٠ .

وعلى أية حال قد بينت الآية السبب الرئيسي للقتل في قوله تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا﴾ [1] .

وهنا ننهي هذا البحث ونبدأ « بالارهاب الفكري» ..

---

(1) سورة الاسراء الآية ٣١ ، المعجم المفهرس ص ٢٣٤ .

الارهـاب الفكـري

إن مجال الدراسة الذي يعرف باسم التاريخ الفكري ليس أمـراً هيناً[1] محدود الجوانب فقد يندرج تحت هذا العنوان مدى فسيح من الموضعات الفعلية من آثار الفلاسفة المعنيين في التجديد إلى التعبير عن الخرافات الشائعة مثل التشاؤم الشديد من العدد (١٣) وقد تعرض مؤرخوا الفكر لأفكار الفلاسفة كما تعرضوا للأراء التي يعتنقها رجل الشارع ومهمتهم الأساسية هي : محاولة التعرف على العلاقات بين آراء الفلاسفة والمثقفين، والمفكرين وطريقة العيش الواقعية للملايين الذين يحملون على عواتقهم واجبات المدينة وهي : مهمة تفرق اساساً بين الفكر وبين تلك النظم القديمة الثابتة مثل تاريخ الفلسفة أو تاريخ العلم أو تاريخ الأدب ، و مؤرخو الفكر تهمهُ الأفكار انى وجدها سواء كانت أفكار همجية أم معقولة تأملا رقيقاً أو تحيزاً عاماً ولكنه يهتم بهذه الثمار من نشاط الإنسان العقلي من حيث تأثيرها في وجود الإنسان كله أو تأثرها بهذا الوجود، ومن ثم فهو لا يتعرض فقط للأفكار الموجودة التي تولد غيرها من الآراء المجردة فهو لا يتعرض مثلا لتلك النظرة السياسية المجردة التي تعرف بالعقد الاجتماعي كأنها ناحية من نواحي التفكير المشروع فحسب إنما هو يعالج حتى أشد الأفكار تجريداً عندما تتسرب هذه الأفكار إلى رءوس الأفراد العاديين وقلوبهم فهو يفسر ما كان يعني : العقد الاجتماعي لأولئك الثوار في القرن الثامن عشر الذين قر في نفوسهم أن حكامهم قد خرقوه ولعمري إنها لمهمة شاقة أن مؤرخ الفكر يحاول أن يستنبط مجموعة مركبة من العلاقات بين ما تكتبه قلة من الأفراد وما يقوم به فعلا كثير من الأفراد ومن اليسير عليه على الأقل في الخمسة

---

(١) افكار ورجال قصة الفكري الغربي ج١ ص ١٥ ترجمة/محمود محمد .

والعشرين قرنا الماضية من تاريخ المجتمع الغربي أن يكشف وأن يحلل ما كتبه الأقلية وما قالته [1] وقد يبلغ هذا السجل حد الكمال ولكنه يصل إلى درجة نادرة من الإجادة حتى فيما يتعلق باليونان والرومان وذلك بفضل الجهاد الذي بذلته أجيال متعاقبة من الباحثين غير أن مهمة مؤرخوا الفكر ظلت شاقة حتى امدته المطبعة والتعليم العام بالصحف والمجلات والرسائل وما إليها بسجل لما فكر فيه وأحس به عامة الناس فقد يستطيع المؤرخ أن يصف في وضوح رأي الناس على إختلاف طوائفهم غير أن مؤرخ الفكر لابد أن يبذل جهدا في رسم صورة متكاملة يجمعها من تشتيت المصادر للطريقة التي كانت تسري بها الأفكار في صفوف الجماهير إذ كان يتحتم عليه أن لا يحصر نفسه في تحليل الأفكار في صورة أفكار أخرى ، ونستطيع أن نقول أن من المعقول أن نحصر تاريخ الفكر الإسلامي [2] منذ نهاية القرن التاسع عشر بعد وفاة جمال الدين الأفغاني وبعد أن توفر للشيخ محمد عبده ما سماه الإصلاح الدين وبعد أن ظهر مصطفى كامل كزعيم لحركة المقاومة السياسية اتجه الفكر الإسلامي المقاوم للاستعمار الغربي هنا في رقعة الشرق الأدنى إلى تعبئة الروح والإصلاح الديني عن طريق عرض الإسلام عرضا واضحا والعمل على جعله أساسافي التربية الوطنية وسبيل ذلك إصلاح الأزهر وإحياء الكتب القديمة وقد مثلت المدرسة السلفية التي قادتها مجلة المنار هذه التعبئة بعد وفاة الشيخ محمد عبده وفي هذه الأثناء قام ما يعرف بـ (التجديد والمجددين أو مايصح أن يطلق عليه اسم الفكر الإسلامي)[3] وحسبنا نشير إلى شيء من الإرهاب الفكري كما سجله القرآن عن قصة فرعون المتناثرة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١٩٧ د. محمد الباهي .

(٣) منطق ابن خلدون د. علي الورد ص ١٩٧ .

يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[1]

فانظر أيها القاريء إلى مدى طغيانه وتفريقه الناس ولاشك أن ذلك يؤثر على الفكر فلا يسمح مع هذا الأستبداد لمفكر أن يعلن رأيه والجدال بين العقلاء يبعث على التفكير فينتهي إلى الحق وقد قال تعالى حاكيا عن عمل فرعون الشنيع وبطشه الشديد وإرهابه المتواصل : ﴿سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وانا فوقهم قاهرون﴾ .[2]

فلنا أن نفهم أن وصية موسى لقومه كانت تشجيعاً لهم على إستقبال ما ينتظرهم من تنكيل أو أن نفهم أنها كانت تصبيرا لهم على ما حل بهم منه بالفعل وهي الوصية اللائقة بنبي كل إعتماده على الله وكل عون له من الله الأستعانة بالله والصبر على البلاء ثم التثبيت والْبُشْرَى بالخلاص فهذه الأرض لله وما فرعون وقومه إلا نزلاء والله يورثها من عباده من يشاء ثم أن العاقبة مضمونة ومكفولة لمن يتقي الله ويخشاه ولا يخشى أحداً سواه : ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولن يكون من المتقين من يطوي جوانحه على خالجة من خشية لغير الله كائنا ما كان وكائنة قوته ما كانت أن القلب الذي تساوره مثل هذه الخالجة قلب لا يخلو من شرك بالله ولن تجتمع التقوى مع الشرك في قلب بشر ..

ويمضي موسى عليه السلام نهجه يذكرهم بالله ويعلق رجاءهم به ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض مع التحذير من الفتنة بالأستخلاف : ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ فليس هو استخلاف محاباه وليس هو جزافا بلا غاية وليس هو خلوداً بلا موت ولا توقيت إنه استخلاف للأختبار : ﴿فينظر كيف تعملون﴾ وإنه ليرى ويعلم ما سيكون ولكنها سنة الله وعدلهُ ألا يحاسب البشر

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٣٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .

حتى يقع منهم في العيان ما هو مكشوف من الغيب لعلم الله .

لقد مضى فرعون وملؤُهُ إذن في جبروتهم[1] ونفذ فرعون وعيده وتهديده بقتل الرجال واستحياء النساء ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب ويرجون الفرج ويصبرون على البلاء وعندئذ أخذت القوى الكبرى تتدخل بين المتجبرين والصابرين[2] ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين[3] ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ فهي إشارة التحذير الأول : الجدب والقحط، الثمرات والسنين تطلق على سني الجدب والقحط وهي في أرض كأرض مصر المخصبة المثمرة تبدو ظاهرة تلفت النظر وتهز القلب وتثير القلق وتدعو إلى اليقظة والتفكر ومحاسبة النفس على الخطايا إتقاء للبلايا وهكذا أخذ الله آل فرعون بالسنين لعلهم يذكرون ــ إنها اللمسة الموقظة لو أن في القلب حياة وحساسية ولكن آل فرعون لم يتدبروا ولم يتذكروا وكانت الوثنية وخرافتها قد أفسدت فطرتهم وقطعت صلتهم بنواميس الحياة الصحيحة فكانوا إذا اصابتهم الحسنة نسبوها إلى حسن حكمهم وإذا اصابتهم السيئة نسبوها إلى نحس موسى : ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصيبهم السيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ ومضى آل فرعون في عتوهم تأخذهم العزة بالأثم ويزيدهم الأبتلاء حماسا وعناداً[4] ﴿وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ .

فهو الجموح الذي لا ترضيه بينه ولا يلينه اقتناع ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر لأنه يعلن الأصرار على التكذيب قبل أن يعرض عليه الدليل قطعا

---

(١) في ظلال القرآن ج٩ ص ٣٩ ــ ٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن ج٩ ص ٣١، ٣٢، ٣٣، ط١ سيد قطب .

(٣) واحيانا يراد بالسنين الحول والعام والسنين جمع سنه ومنه قوله ﴿اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف﴾ .

(٤) الفخر الرازي ج٢ ص ١٤ ــ ١١٤ .

للطريق على الدليل وهى حالة نفسية تصيب الجبارين حين يدمغهم الحق ، وحيئذ تتدخل القوة الكبرى بوسائلها الجبارة ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ... إلى آخر الآية﴾ للإنذار والإبتلاء ولقد جمع السياق هنا تلك الأيات المفصلة والمعجزات الفاصلة التي جاءتهم واحدة وهم في كل مرة يطلبون موسى وهم تحت ضغط البلية أن يدعو ربه لينقذهم منها ويوعدونه أن يرسلوا معه بني اسرائيل إذا نجاهم منها: ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا : ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل﴾ وفي كل مرة ينقضون عهدهم ويعودون إلى ما كانوا فيه ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾ جمع سياق الآيات كأنما جاءت مرة واحدة وكانت نهايتها كذلك واحدة ﴿فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ وهي طريقة من طرق العرض الفني للقصة القرآنية [1] يجمع فيها البدايات تماثلها والنهايات تماثلها ذلك أن القلب المقلق المطموس يتلقى التجاريب المنوعة وكأنها واحدة لأنه لم يستشعرها ولم يميزها ولم يتبينها فأما كيف وقعت هذه الآيات فليس لنا وراء هذه النصوص شيء ونقف عند حدود النص إلا إذا جاء عن رسول الله ﷺ نص يبين تفاصيل هذه الأيات والحوادث فنذكره لزيادة الفائدة وإيضاح المعنى وعند كل آية كان آل فرعون يؤخذون ويفزعون فيبذلون الوعد ويقطعون العهد ثم ينكثون وكان العذاب يرفع عنهم ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ أجل مؤقت يتحقق معه عدل الله الذي لا يقع معه الهلاك إلا بعد الإنذار فلما أن جاء الأجل وانتهت العدة تحقق النذير وتم التدمير ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بأياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ والسياق هنا يقتصر في حادث الاغراق ولا يفصل خطواته كما يفصلها في مواضع اخرى من السور [2] ذلك أن الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل فلا داعي اذن إلى

---

(١) في ظلال القرآن ج٩ ص ٣٧، ط ١ .

(٢) الفخر الرازي ج١٤ ص ٢١٤ .

طول العرض والتفصيل أن الحسم السريع هنا أوقع في النفس وأرهب للحس ﴿فأنتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم﴾ ضربة واحدة فإذا هم هالكون ومن التعالى والتطاول والأستكبار إلى الهوى في الأعماق والأغوار ﴿جزاءً وفاقا﴾ وهكذا نجد نتيجة الإرهاب هي : الدمار وإذا فرعون الطاغية وقومه مغرقون وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة وما كانوا يقيمون من أبنية فخمة قائمة على عمد وأركان [٢] إذا هذا كله مدمر محطم في ومضة عين أو في بضع كلمات هذه هي عاقبة المكذبين والمنكرين والمستكبرين في الأرض بغير الحق .

وانظر إلى موقف فرعون من السحرة وهو يمثل الإرهاب الفكري في شدة وغطرسة واستكبار في الأرض بغير الحق وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿قال الملأ من قوم فرعون أن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾ .

علمنا أن هذه القصة تَمُوجُ بالحركة وبالحوار وتزخر بالأنفعالات والسمات وتتخللها التوجيهات إلى مكامن العبر في السياق ويقف عرضها عند مشهد الميثاق في ظل الجبل ذلك المشهد المرهوب الذي ترتجف له القلوب وفي هذا الموقف يهتف للقوم بالتقوى والخوف والحذر من وقوع البلوى وتحقق النذر : ﴿خذوا ما أتيناكم بقوة وأذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ إنه مشهدٌ اللقاء الأول بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر وبين الإستقامة والأنحراف (يافرعون) لم يقل له يامولاي ولكن ناداه بلقبه في أدب وأعتزاز ناداه ليقرر له حقيقة أمر ﴿أني رسول من رب العالمين﴾ رب الجميع الذي يهيمن على الجميع ﴿حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق﴾ فأنا ملزم ومأخوذ بقول الحق وحده لا أقول على الله سواه ويحدد النص هنا غاية رسالة موسى عليه السلام إنها اطلاق بني اسرائيل من رق فرعون وملائه اطلاقهم مع موسى ليأخذهم بالرسالة التي ارسله الله إليهم بها وليست رسالة إلى غير بني اسرائيل

(١) في ظلال القرآن ج٩ ص ٢١ .

من البشر إنما هي لهم خاصة كما يدل عليه النص هنا وإلى هنا يبدو موقف فرعون طبيعياً ومعقولا رجل يأتي إليه فيناديه بلقبه مجرداً ويخبره أنه رسول من رب العالمين صادق وأنه يحمل بينة تدل على صدقه وأنه يطالب اطلاق بني اسرائيل له فيطلب فرعون هذه البينة التي أشار الرجل اليها قال : ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ ويفاجئنا السياق بما فوجيء به فرعون فكأننا نشهد الواقعة للمرة الأولى .. ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ تلك اذن هي البينة وهي المعجزة وهي مصداق الدعوة التي جاء بها موسى ــ وهنا تتدخل حاشية السوء واصحاب النفوذ الذين يشهرون نفوذهم بتزيين الضلال والصد عن سبيل الله وعن الهدى .

قال تعالى :﴿قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم﴾ فماذا تفعلون لاتقاء هذا الخطر العظيم وهكذا يلغون من نفوس القوم بهذا التهويل فيشير فريق منهم على فريق : ﴿قالوا ارجه وأخاه وارسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾ ليقف السحر في وجه السحر ويتقي القوم هذا الشر ويقف السياق عند هذا المشهد ويسدل الستار على القوم يتآمرون وقد أرجأوا موسى وأخاه إلى أجل حتى يجمعوا له السحرة من المدائن كما أشار المفسدون المضللون ولا يذكر السياق أنهم أرسلوا إلى السحرة ولا أنهم جمعوهم إنما يرفع الستار مرة أخرى على مشهد السحرة مجموعين يحاورون فرعون ويحاورهم فيما سيكون : ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا أإن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين؟ قال نعم وانكم لمن المقربين﴾ إنهم محترفون والأجر هو هدف الأحتراف وهذا فرعون يجمعهم من المدائن ليواجه بهم موسى ونفهم من السياق أنهم كانوا عالمين بالعمل الذي جمعوا له فهم يستوثقون من أجرهم عليه وها هو ذا فرعون يعدهم الأجر ويعدهم إلى جواره قربى ومنزلة

(١) نفس المصدر السابق ج٩ ص ٢١ .

زيادة في الأغراء وتشجيعا على الأجادة وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الأحتراف والمهارة والتضليل إنما هو موقف المعجزة والرسالة والأتصال بالقوة الغالبة التي لا تقف لها السحرة ولا المتجبرون ولقد اطمأن السحرة على الأجر واشرأبت اعناقهم إلى القربى من فرعون واستعدت نفوسهم للحيلة فها هم أولا يتوجهون إلى موسى بالتحدي : ﴿قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال : القوا﴾ ويبدو التحدي واضحا في تخيرهم لموسى وتبدو كذلك ثقتهم في سحرهم وقدرتهم على الغلبة وفي الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى بالنهاية واستهانته بالتحدي : ﴿قال : القوا﴾ فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة وتلقي الظل النفسي الكامن وراءها ولكن السياق يفاجئنا بما فوجيء به موسى هذه المفاجأة لم ينص عليها هنا وإنما جاءت في سورة «طه» فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا (لا تخف إنك أنت الأعلى) وبينما نحن في ظلال الاستهانة وعدم المبالاة إذ بنا أمام مظهر السحر البارع الذي يرهب ويخيف وإذا هي المفاجأة التي يخبئها السياق ليكشف عنها بكل قوتها ﴿فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ وحسبنا أن يشهد القرآن لذلك السحر بأنه عظيم لندرك أي سحر كان وحسبنا أن نعلم أنه سحر (أعين الناس) وأثار الرهبة في القلوب (واسترهبوهم) لِنَتَصَوَّر أي سحر كان[1]. ولفظة : (استرهب) ذاتها لفظة مصورة فهم لم يرهبوا الناس فحسب إنما استجاشوا وجدان الرهبة قسرا وساقوهم اليه سوقا ، ثم مفاجأة اخرى فكل هذا السحر وكل هذا الأسترهاب يتضاءل في لحظة وينطوي في ومضة ﴿واوحينا إلى موسى أن الق عصاك فإذا هي تلقف مايأفكون فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون﴾ إنه الباطل ينتفش ويسحر العيون ولاشك أن فرعون كان مجدا في الكيد والأرهاب مجتهدا في أقسى الأساليب يدل على ذلك قوله تعالى في سورة (طه) ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم اتى﴾ ويحمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أثار به الملأ من قومه وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة وما فكر

فيه وما دبر هو ومستشاروه يحمله في جملة : ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات ذهاب فرعون وجمع الكيد والاتيان به ورأي موسى عليه السلام قبل الدخول في المبارة أن يبذل لهم الهدي ويدعون التحدي بالسحر والسحر افتراء فقال لهم موسى : ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾ والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتقذف الحق فيها . يبدو أن الذي كان فقد تأثير بعض السحرة بالكلمة المخلصة تتلجلج في الأمر وأخذ المصورون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى :﴿فتنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى﴾ وجعل بعضهم يحس بعضا وراحوا يهيجون في المترددين الخوف من موسى وهارون الذين يريدون الاستيلاء على مصر وتغير عقائد أهلها مما يوجب مواجهتهما يداً واحدة بلا تردد ولا نزاع .

واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح قالوا : ﴿ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فاجمعوا كيدكم ثم أوتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة من عقيدة كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم فتزعزع أعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم وفي ما هم عليه من عقيدة وفكر ويحتاج إلى مثل هذا التحمس والتشجيع ــ وموسى وأخوه رجلان اثنان والسحرة كثيرون ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما ﴿يسمع ويرى﴾ ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ويجمع كيده ثم يأتي ويحشر ويجمع الناس ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله؟ وموسى فرد من بني اسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره إنها الهيبة

التي القاها الله على موسى وهارون وهو معهما ﴿يسمع ويرى﴾ وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة توقع الإرتباك في صفوف السحرة المدبرين فتحوجهم إلى التناجي سرا وإلى تجسيم الخطر واستثارة الهمم والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات ثم اقدموا وقالوا: ﴿ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾ وهي دعوة الميدان إلى النزال. يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدي . ﴿قال : بل القوا﴾ فقبل التحدي وترك لهم فرصة البدء واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة ولكن ماذا كان؟ انه لسحر عظيم فيما يبدو وحركة مفاجأة ماجت بها السحرة حتى موسى ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم إنها تسعى فاوجس في نفسه خيفة موسى﴾ والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى ومعه ربه يسمع ويرى وهو لا يوجس في نفسه الخوف إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى حتى يذكره ربه بأنه معه القوة الكبرى : ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ فمعك الحق ومعهم الباطل معك العقيدة ومعهم الحرفة معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جباراً ﴿ولا تخف والق ما في يمينك﴾ فهذا التنكير للتضخيم ﴿تلقف ما صنعوا﴾ فهو سحر من تدبير ساحر وعمله والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار لأنه تخيلا ويصنع تخيلا ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية شأنه شأن كل مبطل امام القائم على الحق المعتمد على الصدق وقد يبدو باطله ضخما فخما مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبخر ولا تتطاول ولا تتظاهر ولكنها تدمغ الباطل في النهاية فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه فإذا هو يتوارى ﴿والقى موسى عصاه﴾ ووقعت المفاجأة الكبرى والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقوعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرصُ الناس على الفوز فيها والذين كانوا منذ اللحظة الأولى يحمس بعضهم بعضا ويدفع بعضهم بعضا والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يوجس في

نفسه خيفة موسى ويخيل إليه ــ وهو الرسول ــ أن حبالهم وعصيهم تسعى يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه ولا يكفي النطق للأفضاء به ﴿فالقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب موسى وهارون﴾ إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله وينبعث النور ويشرق الظلام إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السحر اللطيف أنى لهم أن يدركوا كيف تنقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما اطغوا وبغوا ورأو الأتباع ينقادون لأشارة منهم نسوا أن الله هو مقلب القلوب وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان ﴿قال أآمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ قولة الطاغية الذي لايدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون وقد لمس الإيمان أنفسهم أن يدفعوه عنها والقلب بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلب كيف يشاء ﴿أنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ فذلك سر الإستسلام في نظره لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ويسلطونه على الأجسام والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ﴿فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة قوة الوحوش في الغابة القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالنبات ﴿ولتعلمن اينا أشد عذابا وأبقى﴾ ولكنه قد كان فات الأوان كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذروة الصغيرة بمصدرها الهائل فإذا هي قوية قويمة وإذا القوي الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقض هذه الحياة الدنيا إنا آمنا

ربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من لسحر والله خير وأبقى﴾ إنها لمسة من الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تحنوا لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق اليه المتسابقون فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة وترخص ملكه وزخرفته وجاهه وسلطانه ﴿قالوا لن تؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا﴾ فهي علينا اعز وأغلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى ﴿فأقض ما أنت قاض﴾ ودونك وما تملكه لنا في الأرض ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ فسلطانك مقيد بها ومالك من سلطان علينا في غيرها وما أقصر الحياة الدنيا وما أهون الحياة الدنيا وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ويأمل في الحياة الخالدة ابدا ﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ فما كنت تكلفنا به فلا نملك عصيانك بإيماننا بربنا يغفر لنا ﴿والله خير وأبقى﴾ خير قسمة وجوار وأبقى مغنما وجزاء إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى .

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم ان يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستملي ﴿إنهمن يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ فلا هو ميت يستريح ولا هو حي يتمتع إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة وفي الجانب الآخر الدرجات العلى جنات للأقامة نديمة بما يجري تحت غرفاتها أنهار، ﴿وذلك جزاء من تزكى ﴾ ونطهر من الآثام وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر وواجهته بكلمة الإيمان القوية وباستعلاء الإيمان الواثق وبتحذير الإيمان الناصح ورجاء الإيمان العميق ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية اعلانا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الارض وسلطان الأرض وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الاعلان القوي إلا في ظلال الإيمان وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة أخرى من القصة جديدة أنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود بعد إنتصارهما في عالم الفكرة

والعقيدة فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرعب والرهب والتهديد والوعيد، فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير وما يستعلي اصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن أن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها الواقعية فأما إذا ظل الإيمان مظهرا لم يتجسم في القلب والحق شعارا لا ينبع من الضمير فإن الطغيان والباطل قد يغلبان لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان ويجب أن تحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلى بها الباطل ويصول بها الطغيان وهذا هو الذي كان في موقف موسى عليه السلام من السحرة وفي موقف السحرة من فرعون وملئه ومن ثم انتصر الحق على الباطل في الأرض كما يعرض هذا المشهد في سياق السورة : ﴿وأوحينا إلى موسى أن اسري بعبادي فأضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ .

ولا يذكر السياق هنا ما الذي كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون ولا كيف تصرف معهم بعدما أعتصموا بأيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بالقلب المؤمن المتعلق بربه المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها إنما يعقب بهذا المشهد مشهد الأنتصار الكامل ليتصل النصر القلبي بالنصر الواقعي وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة ولنفس الفرض لا يطيل هنا في مشهد الخروج والوقوف أمام البحر كما يطيل في سورة أخرى بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كبيرة لأن مقدماته كانت في الضمائر والقلوب وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله

بني اسرائيل ليلا فيضرب لهم طريقا في البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف اصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اتباع الوحي والسرى ليلا ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة وفرعون وجنده يملكون القوة كلها فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده يقول الطغيان ﴿فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ فيقول الإيمان : ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلي هذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان وعبرة أخرى أنه حين كان بنو اسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل ابناءهم ويستحي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لأدارة المعركة فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واستكانة وخوفا فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعوا الرءوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ودون اتقاء للتعذيب فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة والأعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب هذه هي العبرة التي برزها السياق بذلك الأجمال وتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات يستيقنها أصحاب الدعوات ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض والطغاة يملكون المال والجند والسلاح وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير كي لا ينسوا ولا يبطروا ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذي كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاح ﴿يابني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم

وواعدناكم جانب الطور الأيمن وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغو فيه فيحل عليهم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحا ثم اهتدى﴾ لقد جاوزوا منطقة الخطر وانطلقوا ناجين ناحية الطور وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرق وانجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير ولكنه اعلان التسجيل والتذكير بالنعمة المشهورة ليعرفوها ويشكروها . قال تعالى محذرا من الطغيان والفساد فى الأرض واقتحام المنهيات وتناس النعم : ﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ ولقد هوى فرعون منذ قليل هوى عن عرشه وهوى في الماء والهوى إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالي والتعبير يشف هذه المقابلات في اللفظ والظل على طريقة التناسق القرآني .

أقول وبالله التوفيق : الغرض من ايراد هذه القصة وما وقع فيها من محاورة بين الطاغية الكبير فرعون ــ وموسى عليه السلام هو إبراز ما فيها من إرهاب فكري عظيم تضمنته هذه القصة وكان هذا العدو مستمرا عليه وقد رأينا قبل قليل كيف مات هذا الطاغية وهو متماد على إرهابه الشديد لم يردعه ما رأى من الآيات البينات حتى غشيه من اليم ما غشيه وكانت اللحظة التي لا ينفع فيها الندم وهذه القصة وافية بالغرض المراد من ابراز الارهاب ونتيجة الإرهابيين وقصة موسى هي أكثرقصص المرسلين ورودا في القرآن وهي تعرض في حلقات تناسب موضوع السورة التي تعرض فيها جوها وظلها وقد وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة والمائدة والأعراف ويونس والأسراء والكهف وذلك غير الإشارات إليها في سور أخرى وما جاء فيها في المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بني اسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة فأما في البقرة والأعراف وينس

وطه فقد وردت منها حلقات كثيرة ولكن هذه الحلقات تختلف في سورة عنها في الأخرى تختلف الحلقات المعروضة كما يختلف الجانب الذي تعرض فيه تنسيقا له مع أتجاه السورة التي يعرض فيها ففي البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه بالملأ الأعلى وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بما غفر له فجاءت قصة موسى وبني اسرائيل تذكيرا لبني اسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده اليهم وانجائهم من فرعون وملئه واستقائهم وتفجير الينابيع لهم واطعامهم المن والسلوى وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم العجل من بعده ثم غفرانه لهم وعهده اليهم تحت الجبل ثم عدوانهم في السبت وقصة البقرة وفي الأعراف سبقها الانذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام فجاءت قصة موسى عليه السلام تعرض ابتداء من حلقة الرسالة وتعرض فيها آيات اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل وخاتمة فرعون وملئه المكذبين [1] ثم ما كان من بني اسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى وتنتهي القصة بإعلان فيها وراثة ورحمة وهداية للذين يتبعون الرسول النبي الأمي وفي يونس سبقتها عرض صراع المكذبين فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة وعرض مشهد السحرة ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل .

أما هنا في (طه) فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل الرسالة وتبليغ دعوته فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجات وتتضمن رعاية الله لموسى وتثبيته وتأييده وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة فقد كانت ترافقه في طفولته فتحرسه ﴿والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾ .

أقول وبالله التوفيق : في هذا التعبير ما يشير إلى العناية التي كان موسى محاطا بها من قِبَل الله عز وجل من صغره وطفولته بين يدي فرعون حتى

---

(١) في ظلال القرآن بتصرف : ٨٩/١٦ سيد قطب .

فارقه خوفا على نفسه عندما اشتد طلب فرعون له وقد هداه الله الطريق السوي بعد خروجه واستجابة لدعائه ﴿رب أهديني سواء السبيل﴾ كما وفقه الله في صحبة الرجل الصالح ومصاهرته بعد أن اخبرته ابنتاه أنه قوي أمين لأنهما شاهدا ذلك عندما قام لهما بسقي الغنم ﴿ان خير من استأجرت القوي الأمين﴾ وهكذا يعقد الله الخير بنواصي أهل الخير المخلصين في أعمالهم ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل . والواقع أن الإنسان إذا خاف الله واتقاه اعطاه الله هيبة فيكون عليه الوقار والهيبة بسبب ذلك الورع المستقر في قلبه .

وقد جاء في كتاب الزهد للإمام أحمد [1] : أن فرعون كان لا يأتي الخلاء خلال اربعين يوما إلا مرة فأختلف عليه ذلك عندما دخل عليه موسى عليه السلام فتردد علي بيت الخلاء اربعين مرة وفطن لذلك وازعجه والإنسان حين يصل به البطر إلى درجة الأفتراس والإرهاب نجده لا يقوم وزنا لعرض الإنسان وماله وكرامته لا يرى حرمة لهذا كله لكونه شرس الأخلاق يتميز غيظاً وحقداً رهيبُ الفكر مسرف في الأجرام لا يرى لغيره حرمة أمثال فرعون ومن على شاكلته إلى يومنا هذا من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون أن هذا المنصب الذي حصل عليه هذا الطاغية وصل إليه بأبشع أنواع الارهاب الفكري قتل الوالد وما ولد وهذا لاشك من أعظم الفساد في الأرض ﴿إنه كان من المفسدين * يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم﴾

أقول وبالله التوفيق : إذا نظرنا إلى الزاوية الإسلامية المقابلة لهذا العمل وعلمنا أن فرعون [2] كان يقتل الولد حرصا منه على نفسه وخوفا من أن يتربى في أحضان أهله فيكون فيه عداوة له وجدنا في المقابل ان الإسلام يربي الفرد تربية تجعله يبذل كل ما عنده في سبيل الله وفي صالح عبادته أن مضمرات

---

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد ص ٦٦ .

(٢) الفكر القانوني الإسلامي .

هذا الدين وكوامنه لم تنته بعد .

ان في استطاعته أن يوجد عالما جديداً [1] يحيا فيه الفقراء أغنياء لا يقوم فيه المجتمع البشري على مساواة البطون بل يقوم على مساواة الأرواح ومن حكمة الله البالغة أن كل إنسان يدافع عن موقفه ولا يرضى بأي وصمة فيه وإن كان على خطأ بواح وارهاب فكري منقطع النظير فإن ذلك كله لا يجعله يعدل من خط سيره في حب الغلبة والجاه والأنتصار ﴿قال فرعون ما اوريكم إلا ما أرى وما اهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ انني لا اقول لكم إلا ما أراه صوابا واعتقده نافعا وأنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأن يظن [2] أحد أنهم قد يخطئون؟ وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا وإلا فلم كانوا طغاة؟ ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا ويجد أن عليه واجبا أن يحذر وينصح ويبدي من الرأي ما يراه ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جانب الحق الذي يعتقده كائنا ما كان رأي الطغاة ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين ويطرق قلوبهم بلفتها على مصراع الأحزاب قبلهم وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة ﴿وقال الذي آمن ياقوم اني اخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد﴾ ولكل حزب كان يوم ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد (مثل يوم الأحزاب) فهو اليوم الذي تجلى فيه بأس الله وهو يوم واحد في طبيعته [3] على تفرق الأحزاب ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ إنما يأخذهم بذنوبهم ويصلح من حولهم ومن بعدهم يأخذهم بأيام الله يوم القيامة يوم التنادي ﴿وياقوم اني أخاف عليكم

---

(١) الصراع بين الفكر الإسلامي والفكرة القانونية ص ١٠٧ ط ٢ الندوي .

(٢) في ظلال القرآن، بتصرف : ٧٠/٢٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ج٢٤ /٧٠ ــ ٨١ .

يوم التنادي يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هادي﴾ فالتنادي واقع من صور شتى وتسميته (يوم التنادي) تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك ويصوره يوم زحام وخصام ويتفق ذلك مع قول الرجل المؤمن ﴿يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾ .

أقول وبالله التوفيق : هكذا نرى الارهاب الفكري والطغيان ومقاومة الحق بالباطل والوقوف في وجه الدعوة الإسلامية يصير اصحابه إلى بحبوحة الذل والهوان وجدير بالعاقل أن يتعظ بهذه الأحداث التي مرت آنفا ويعرف من خلالها أن العمل محصور ومحسوب على صاحبه وان الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لجميع الأعمال ما تقدم منها وما تأخر ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ فقد مرت قرون كثيرة ولم يخل قرن من مفسدين إرهابين ولكن كان ذلك يختلف من شخص إلى آخر ومن قوم إلى آخرين فبعضهم مثلا كان إرهابه محصورا في حب الجاه والمال والأستخفاف بالغير وبعضهم كان ارهابه يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن ومن.أشد أنواع الأرهاب الذي يتعلق بالأعمال ما قص علينا القرآن الكريم مما كان يقوم به (فرعون) الذي كان يقتل المواليد لا لشيء إلا أنهم ولدوا وخوفا من أن يكون من ضمنهم من يعكر صفوه في الحياة فيما بعد فياله من إرهاب منقطع النظير .

وقد رأينا كيف كانت عاقبة المكذبين فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن يصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم كعاد وثمود والأحزاب وهذا قليل من كثير فإن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ .

أقول وبالله التوفيق : المعركة بين الحق والباطل كانت ولاتزال وستظل

---

(١) في ظلال القرآن ج٢٤ / ٧٠ ــ ٨١ .

مستمرة ولكن أيضاً لا تزال طائفة منصورة لا يضرها من خالقها والذين اختارهم الله للهدى إذا رأوا الحق بادروا إليه معلنين أن هذه هي طريقتهم لا يهمهم ما سينالهم من إرهاب وتنكيل فسحرة موسى عليه السلام عندما وصلوا تعجلوا الأجرة من فرعون والمودة وواعدهم فرعون بذلك وأن يكونوا من المقربين اليه ولكن عندما رأو العصا تتلقف ما يأفكون وهم اصحاب هذه الخبرة تركوا فرعون وما بحوزته من زينة الحياة الدنيا واختاروا حزب الله وخروا لله سجدا ولم يؤثروا شيئاً بعد ما رأوا البينات ولم يهمهم أرهابه ولا ما توعدهم به من التقطيع والتقتيل وهكذا أنضم الحق إلى الحق ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ أما السحرة فقد لحق بهم من الإرهاب والتنكيل ما كان السبب في موتهم واصبحوا من المفلحين والله وحده هو الذي يعلم من حال الناس ما يصلح ومن يستحق الضلال ومن يستحق الهدى ويقص القرآن علينا هذه المحاورة بأوجز عبارة وأبلغها كما رأينا فيما مر من الآيات القرآنية .

أقول وبالله التوفيق : الظاهر ان الله سبحانه وتعالى إنما أنزل على فرعون وملئه هذه المضار التي تقدم ذكرها من الطوفان والجراد وغيرهما لأجل أن يرجعوا عن طريقة الغي والفساد اللذين دأبوا عليهما لأن الشدة ترقق القلب وترجع الإنسان إلى فطرته السليمة التي ولد عليها والإنسان حين يشتد به الخوف لا يلجأ إلا إلى الله كما قال تعالى عن المشركين حين يركبون البحر ويهيج البحر فإنهم يتوجهون بالدعاء إلى الله والتضرع إلى الله وحده لا شريك له ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ وبنوا اسرائيل كانوا يطلبون من موسى أن يدعوا الله يرفع عنهم البلاء حين ينزل ويتعهدوا ويلتزموا بتنفيذ المطالب كلها ولكن إذا رفع البلاء رجعوا لما كانوا فيه علما بأنهم كانوا يروا في أنفسهم أنهم إن رفع عنهم البلاء يتركون ذلك التمرد والعناد ويرجعون إلى الأنقياد والعبودية [1]

---

(١) الفخر الرازي ج١٢ /٢١٥ .

وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله والدليل عليه قوله تعالى ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ وقوله تعالى ﴿وإذا مسه الشر فذوا دعاء عريض﴾ . هذه الآية تدل على أنه تعالى فعل ذلك ارادة منه أن يتذكرو لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر وعلى ايه حال فقد جاء آل فرعون النذر فلم يعتبروا ولم يزدجروا بل تمادوا في طغيانهم يعمهون واستمروا في إرهابهم وعنادهم الشديدين حتى أنتقم الله منهم لعباده المؤمنين وجعلهم عبرة لمن بعدهم .

وهكذا يكون مصير النفس الشريرة الرهيبة بخلاف أصحاب الأنفس الزكية الذين يريدون وجه الله ويصبرون على القتل والتعذيب ابتغاء مرضات الله وثقة بالله كما وقع لموسى عليه السلام واصحابه .

اقول قوله تعالى :﴿سنقتل ابناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ في هذه الآية مسائل الأولى :

قرأ نافع[2] (سنقتل بفتح النون والتخفيف والباقون بضم النون والتشديد على التكثير يعني : ابناء بني اسرائيل ومن آمن بموسى عليه السلام .

المسألة الثانية : أن موسى عليه السلام إنما يمكنه الأفساد بواسطة الرهط والشيعة فنحن نسعى في تقتيل رهطه وذلك بأن نقتل ابناء بني اسرائيل ونستحي نساءهم ثم بين أنه قادر على ذلك بقوله ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ والمقصود ترك موسى وقومه لا من عجز وخوف ولو اراد به البطش لقدر عليه كأنه يوهم قومه أنه إنما لم يحبسه ولم يمنعه لعدم التفاته اليه ولعدم خوفه منه واختلف المفسرون فمنهم من قال كان يفعل ذلك كما فعله ابتداء عند ولادة موسى ومنهم من قال بل منع منه واتفق المفسرون على أن هذا التهديد وقع في غير الزمن الأول ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .

﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ وهذا يدل على أن الذي قاله الملأ لفرعون والذي قاله لهم قد عرفه موسى عليه السلام ووصل إليه فعند ذلك قال لقومه: ﴿استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ (١) .

فهنا أمرهم بشيئين وبشرهم بشيئين أما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما فالأول الأستعانة بالله والثاني الصبر على بلاء الله وإنما امرهم أولاً بالاستعانة بالله وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله وقدره واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء .

وأما اللذان بشر بهما : فالأول قوله : ﴿ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ وهذا اطماع من موسى عليه السلام قومه في أن يرثهم الله تعالى الأرض أرض فرعون بعد أهلاكه وذلك بمعنى الأرث وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف والثاني قوله : ﴿والعاقبة للمتقين﴾ فقيل المراد أمر الآخرة فقط وقيل المراد أمر الدنيا فقط وهو : الفتح والظفر والنصر على الأعداء وقيل المراد مجموع الأمرين وقوله : ﴿والعاقبة للمتقين﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة (٢) ولقد مضى موسى وقومه يتحملون العذاب وينتظرون الفرج ويرجونه من الله العلى القدير ويصبرون على البلاء حتى جاء الفرج وفي هذه الفترة كان الحكم للشهوة وكانت السيادة للضلال وكان الحق للقوة وظل هذا الظلام كثيفاً كامنا في هذا الجو المشحون بالباطل إلى أن أرسل الله نبيه محمداً ﷺ وأمره أن يبشر الناس بالاسلام كافة وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ونوراً ورحمة فأخذ يتلو

(١) سورة الأعراف الآية ..

(٢) في ظلال القرآن ج٩ /٣٧ ص ١ .

الكتاب ويدعو إلى الحرية والسلام والمساواة وَيُسَفِّهُ آراء الوثنية والشرك والبهتان ويحارب استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ويأمر بكل ما هو حق وخير وعدل وينادي بحق العامل والفقير والمحروم والرقيق والمرأة ويحرم السلب والنهب واللصوصية والربا وأكل أموال الناس بالباطل والفساد[1] ويؤاخي بين الناس ويحبب بين الناس التآخي والمعونة ويحطم العصبيات والحمية الجاهلية الأولى ويلغي الفوارق بين الشعوب والجماعات .

وإلى هنا ننهي هذه النبذة من الأرهاب الفكري ونتيجته وما آل اليه الإرهابيون وعرفنا كيف كانت النتيجة وعلى من دارت الدائرة وهذا المبدأ لا يتغير في زمان ولا مكان ﴿والعاقبة للمتقين﴾ .

---

(١) نفس المرجع السابق .



الآيـات الأرضيـة

قوله تعالى : ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا﴾ . [1]

ظاهر هذه الآية أنها سيقت للبعث وذلك ظاهر من السياق قبلها حيث قال تعالى .. مخبراً عن قولة الكفار :﴿وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديداً﴾

قال الفخر الرازي عند الكلام على هذه الآية [2] : اعلم أنه تعالى كما اجاب عن شبهات منكري النبوة عاد إلى حكاية شبهة منكري الحشر والنشر ليجيب عنها وتلك الشبهه هي أن الإنسان بعد أن يصير رفاتا ورميماً يبعد أن يعود وهو بعينه وأجاب الله عنه بأن من قدر على خلق السموات والأرض لم يبعد أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم وفي قوله ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ قولآن الأول قادر على أن يخلقهم ثانياً فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظ المثل كما يقول المتكلمون أن الإعادة مثل الأبتداء القول الثاني : أنه سبحانه قادر على أن يخلق عبيداً أخرين يوحدونه ويقرون بكامل حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى : ﴿ويأتي بخلق جديد﴾ وقوله : ﴿ويستبدل قوما غيركم﴾ .

قال الواحدي : [3] والقول الراجح هو الأول لأنه اشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور أن البعث والقيامة أمر ممكن الوجود في نفسه .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٩٩ .

(٢) الفخر الرازي ج٤ ص ٦٢/٢١ ط١ .

(٣) نفس المصدر السابق .

أردفه بأن لوقوعه ودخوله في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى ﴿وجعل لهم آجلا لا ريب فيه﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فأبى الظالمون إلا كفورا﴾ أي : بعد هذه الدلائل الظاهرة أبو الا الكفر والنفور والجحود .

وقوله تعالى : ﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس... ﴾ [1] .

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [2] .

هذا بيان آخر لوجوده سبحانه وتعالى بعد ذكر قدرته قال في الفخر [3] اعلم أنه سبحانه وتعالى لما حكم بالفردانية والوحدانية ذكر ثمانية أنواع من الدلائل التي يمكن أن يستدل بها على وجوده سبحانه وتعالى أو على توحيده وبراءته عن الأضداد والأنداد .

ثانياً : قبل الخوض في تلك الدلائل وشرحها لابد من بيان مسائل المسألة الأولى هي : ان الناس أختلفوا في أن الخلق هو المخلوق أو غيره؟ فقال عالم من الناس : الخلق هو المخلوق واحتجوا عليه بالآية والمعقول أما الآية فهي هذه الآية وذلك لأنه تعالى قال : ﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ـ إلى قوله ـ لآيات لقوم يعقلون﴾ ومعلوم أن الأيات ليست إلا في المخلوق لأن المخلوق هو الذي يدل على الصانع فدلت هذه الآيات على أن الخلق هو المخلوق وأما المعقول فقد احتجوا عليه بأمور : أحدها أن الخلق عبارة عن إخراج الشيء عن العدم إلى الوجود فهذا الإخراج

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٦٤ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ج٤ ص ٢٠١ .

لو كان أمرا مغايرا للقدرة والأثر فهو إما أن يكون قديما أو حديثاً. فإن كان قديماً فقد حصل فى الأزل مسمى الإخراج من العدم إلى الوجود والإخراج من العدم إلى الوجود مسبوق بالعدم ـــ والأزل هو نفي المسبوقية فلو حصل الإخراج في الأزل لزم اجتماع النقيضين وهو محال وإن كان محدثاً فلابد له ايضاً من مخرج يخرجه من العدم إلى الوجود فلابد له من إخراج آخر والكلام فيه كما في الأول ويلزم التسلسل واحتج القائلون بأن الخلق غير المخلوق بوجوه :

أولاً : ان قالوا لا نزاع في أن الله تعالى موصوف بأنه خالق قبل أن يخلق الأشياء والخالق هو الموصوف بالخلق فلو كان الخلق هو المخلوق لزم كونه تعالى موصوفاً بالمخلوقات التي منها الشياطين وذلك لا يقوله عاقل .

وثانياً : إنا إذا رأينا حادثاً حدث بعد أن لم يكن قلنا : لم وجد هذا الشيء بعد أن لم يكن فإذا قيل لنا أن الله خلقه [1] وأوجده قبلنا ذلك وقلنا أنه حق وصواب ولو قيل : أنه وجد بنفسه لقلنا أنه خطأ وكفر ومتناقض فلما صح حدوثه بعد ما لم يكن بأن الله تعالى خلقه ولم يصح تعليل حدوثه بحدوثه بنفسه علمنا أن خلق الله اياه مغاير لوجوده في نفسه فالخلق غير المخلوق .

وثالثهما : انا نعرف أفعال العباد ونعرف الله تعالى وقدرته مع انا لا نعرف أن المؤثر في أفعال العبدا هو : قدرة الله أم هو قدرة العبد والمعلوم غير ما هو معلوم فمؤثرية قادرية القادر في وقوع المقدور مغايرة لنفس تلك القدرة ولنفس ذلك المقدور .

ثم أن هذه المغايرة يستحيل أن تكون سلبية لأنه نقيض المؤثرية التي

---

(١) الفخر الرازي ج٤ ص ٢٠٢ .

هي عدمية فهذه المؤثرية صفة ثبوتية زائدة على ذات المؤثر وذات الأثر وهو : المطلوب .

ورابعها : أن النحاه قالوا : إذا قلنا خلق الله العالم فالعالم ليس هو المصدر بل هو المفعول به وذلك يدل على أن خلق العالم غير العالم .

وخامسها : أنه يصح أن يقال : خلق السواد وخلق البياض وخلق الجوهر وخلق العرض فمفهوم الخلق أمر واحد في الكل مغاير لهذه الماهيات المختلفة . بدليل أنه يصح تقسيم الخالقية إلى خالقية الجوهر وخالقية العرض ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام فثبت أن الخلق غير المخلوق فهذا جملة ما في هذه المسألة .

المسألة الثانية : قال أبو مسلم رحمه الله : اصل الخلق في كلام العرب التقدير وصار ذلك اسما لأفعال الله تعالى لما كان جميعها صوابا ، قال تعالى : ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ ويقول الناس في كل أمر محكم هو معمول على تقديره .

المسألة الثالثة : دلت هذه الآية على أنه لابد من الاستدلال على وجود الصانع بالدلائل العقلية وان التقليد ليس طريقا إلى تحصيل هذا الغرض .

المسألة الرابعة : ذكر ابن جرير في سبب نزول هذه الآية [1] عن عطاء أنه عليه السلام عند قدومه المدينة نزل عليه :﴿وإلهكم إله واحد﴾ فقال كفار قريش كيف يسع الناس إله واحد . فأنزل الله تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ .

وعن سعيد بن مسروق قال : سألت قريش اليهود فقالوا : حدثونا عما جاءكم به موسى من الآيات فحدثوهم بالعصا وباليد البيضاء وسألوا النصارى عن ذلك فحدثوهم بابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فقالت قريش عند

---

(١) الفخر الرازي ج٤ ص ٢٠٢ .

ذلك للنبي ﷺ ادعوا الله أن يجعل لنا الصفا ذهبا فنزدادوا يقينا وقوة على عدونا فسأل ربه ذلك فأوحي الله تعالى اليه أن يعطيهم ولكن إذا كذبوا بعد ذلك عذبتهم عذابا لا أعذبه احدا من العالمين فقال عليه الصلاة والسلام : «ذرني وقومي أدعوهم يوماً فيوماً» فأنزل الله تعالى هذ الآية مبينا لهم أنهم إن كانوا يريدون أن يجعل الله لهم الصفا ذهبا ليزدادوا يقينا فخلق السموات والأرض وسائر ما ذكر أعظم واعلم أن الكلام في هذه الأنواع الثمانية من الدلائل على أقسام فالقسم الأول مذكور في قوله تعالى : ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء﴾ ثم قال الفخر الرازي :

ولنذكر هنا نمطاً آخر من الكلام : روى أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي علي عمر الأبهري فقال بعض الفقهاء يوماً ما الذي تقرؤنه فقال : أفسر آية من القرآن وهي قوله تعالى : ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾ فأنا افسر كيفية بنيانها ولقد صدق الأبهري فيما قال فان كل من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته فنقول الكلام في أحوال السموات على الوجه المختصر الذي يليق بهذا الموضع مرتب في فصول الفصل الأول في ترتيب الأفلاك ـــ الفصل الثاني في معرفة الأفلاك ـــ الفصل الثالث في مقادير الحركات ـــ الفصل الرابع في كيفية الإستدلال بهذا الأول على وجود الصانع .

أقول وبالله التوفيق : بعد ما قدمنا نبدأ في التعليق على ما مر من اختلاف بين الخلق والمخلوق وأرى أن الخلق غير المخلوق إذ الخلق هو التأثير وفرق بين المصدر وبين المفعول فالخلق مصدر والمخلوق مفعول ولابد من التغاير بينهما وما يقال من أن الخلق هو عين المخلوق غير صواب إذ الخلق قائم بذات الخالق وليس المخلوق قائم بذاته بل هو أثر قدرته ونؤكد هنا في المسألة الثانية التغاير بين الخلق والمخلوق إذ التقدير غير المقدر وحول المسألة الثالثة المتقدمة أقول قد يكتفي المؤمن على وجود الله بالدلائل

السمعية إذ الدلائل العقلية لا يتساوى فيها إدراك كل الناس السمعية في الجلاء والخفاء وقد سبق لي أن تناولت التقليد وعيوبه وبينت أنه من بين العوائق التي تعوق العقل عن التأمل والتدبر فالمطلوب أولا الدلائل السمعية ثم الدلائل العقلية لتفهم ما جاء به الشرع على أن يكون السمع هو مستند العقل وفيما يتعلق بالمسألة أقول : لو صح ما ذكر من سبب نزول الآية فالمعنى أن الله ينقلهم من الكسل والتوكل إلى النظر والبحث والأستدلال بالأيات على وجود الله وبعد التعليق على المسألة الرابعة والمتعلق بسبب نزول الآية الكريمة نتابع كلام العلماء على هذه الآية من سورة الأسراء التي استفتحنا الكلام فيها بما قاله الفخر الرازي .

فنقول وبالله نستعين : أن الآية تعالج موضوع البعث وتقريبه للعباد بالأمثلة الواضحة المرئية لأن العين لا تعرف شيئاً أعظم من السموات والأرض واحياء الأرض بالمطر وإخضرار ما على وجهها من نبات بعد أن كانت لا نبات فيها ثم اصفراره بعد ذلك وأضمحلاله يكفي من نظر فيه يتدبر على قدرة الله التي لا يعجزها شيء وأنه تعالى قادر على النشأة الأخرة كقدرته على النشأة الأولى ولوضوح هذا وكثرة أدلته المرئة كان حكم المنكرين له الكفر والعياذ بالله تعالي .

قال الشوكاني : [1] فجاء سبحانه بحجة تدمغهم وتردهم عن الجحود فقال جل وعلا : ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ .

لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهن كما قال : ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء﴾ [2] . أي من هو قادر على خلق هذا فهو على إعادة ما دونه أقدر ـ

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني ج٣ ص ٢٦٠ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٩٩ .

وقيل قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة وهذا القول هو على الحقيقة وجملة وجعل لهم اجلا لا ريب فيه (عطف على) أو لم يروا والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات قادر على إحياء الموتى والأجل الذي لا ريب فيه هو : الموت أو القيامة ويحتمل أن تكون الواو للأستئناف وقيل في الكلام تقديم وتأخير . وقوله : ﴿فأبى الظالمون إلا كفورا﴾ . أبى المشركون إلا جحودا وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب اجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معايشهم بين الله سبحانه وتعالى أنهم لا يفقهون ولا يقنعون بل يبقون على بخلهم وشحهم بقوله تعالى : ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الأنفاق وكان الإنسان قتورا﴾ [1] .

أي : بخيلا . قال أهل اللغة : أنفق ـ وأصرم ـ واعدم وأقتر بمعنى قلَّ ماله فيكون المعنى : لأمسكتم خشية قلة المال وأيضاً يقال قتر على عياله يقتر قترا وقتورا = ضيق عليه في النفقة ويجوز أن يراد وكان الإنسان قتورا أي : قليل المال والظاهر أن المراد المبالغة في وصفه بالشح لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم بل بعضهم كثير المال إلا أن يراد جميع النوع الإنساني قليل المال بالنسبة إلى [2] خزائن الله تعالى وما عنده وأختلف في هذه الآية على قولين أحدهما انها نزلت في المشركين خاصة وبه قال الحسن والثاني أنها عامة وهو قول الجمهور حكاه الماوردي .

أقول وبعد تقرير الآية للبعث وإثباته بالأدلة العقلية والنقلية لم يبق لمنكريه أدنى شبهة يجنحون إليها كيف وقد قال تعالي :

﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٠٠ .

(٢) الشوكاني فتح القدير ج٣ ص ٢٦٠ .

بقادر على أن يحي الموتى﴾ [1]. وقال جل وعلا :

﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو[2] الخلاق العليم إنما أمره إذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾. قال ابن كثير : يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم وقوله : ﴿وجعل لهم أجلا لا ريب فيه﴾ أي : جعل لأعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة محدودة لابد من إنقضائها كما قال تعالى : ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ .

ومن خلال ما قاله العالمان الجليلان ابن كثير والشوكاني في الآية الكريمة من سورة الأسراء يتضح لنا أن الآية تسوق الأدلة وتعرضها عرضا واضحا وتقربها لكل عقل سليم حتى لا تبقى شبهة يتذرع بها جاحد للبعث وقدرة الله عليه فان الآيات الأرضية والسماوية فيهما من الأدلة على تحقيق هذا البعث ما يكفي عن الخوض فيه وقد فصلته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تفصيلا شافياً ويظهر من التفصيل المنصوص أن الناس متفاوتون فيه تفاوتا كبيرا جدا ومتباينون تباينا عظيما فبعضهم يحشر على وجهه أعمى وأصم وأبكم .

كما قال تعالى : ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا﴾[3] وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال قيل يارسول الله : كيف يحشر الناس على وجوههم؟ . قال :« الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» .

أقول : وهذا أيضاً فيه دلالة على أن الناس يقومون من قبورهم وهم

---

(١) سورة الأحقاف آية ٤٦ .

(٢) الشوكاني تفسير فتح القدير ج٣ /٢٦٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٦ .

على أصناف متفاوتة ويتضح ذلك فيما رواه الإمام أحمد قال : حدثنا الوليد بن جميع القرشي عن أبيه عن أبي الطفيل عامر بن واثلة [1] عن حذيفة بن أسيد [2] قال : قام أبو ذر فقال : يابني غفار قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون على ثلاث أفواج فوج راكبين طاعمين كاسين وفوج يمشون ويسعون وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار . فقال قائل : هذان قد عرفناهم فما بال الذين يمشون ويسعون؟ : قال :(يلقى الله عز وجل الآفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر حتى أن الرجل ليكون له الحديقة المعجبة فيعطيها بالشارف ذات القتب فلا يقدر عليها) .

أقول وبالله التوفيق : حديث القرآن عن البعث وخطابه العقل دعوة صريحة إلى إيقاظ العقل على التأمل والأستدلال ووقوفه عند حده أمام القضايا الغيبية علما بأن العقل محدود والغيب غير محدود فعلى العاقل أن يفكر طليقا فيما هو مشاهد وعليه أن يقف عند حده فيما هو غائب عن المدارك والعقول وطريق معرفة ذلك هو السمع والنقل عن الشارع فيما صحت نسبته اليه وصح مضمونه وما تضمنه ذلك النص الشرعي وجدير بنا هنا أن نلقي الضوء على الآيات الأرضية حسب الترتيب الذي عرضته الآية الكريمة علينا ونستشف المعاني القيمة منها والعبر الكامنة فيها من قوله عز وجل : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث

---

(١) عامر بن واثلة عبد الله بن عمرو بن جحش الليثي أبو الطفيل وربما سمي عمرا ولد عام أحد ورأى النبي ﷺ وروى عن أبي بكر فمن بعده وعمر . مات سنة عشر ومائة على الصحيح وهو آخر من مات من الصحابة قاله مسلم وغيره . التقريب ج١ ص ٣٨٩/ع .

(٢) حذيفة بن أسيد بفتح الهمزة الغفاري أبو سريحة بمهملتين مفتوحة الأولى منهما صحابي من أصحاب الشجرة ــ مات سنة اثنتين واربعين /م ع التقريب ج١ ص ١٥٦ .

فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [1] .

أقول وبالله التوفيق : بعد سرد الآية الكريمة نبدأ بما بدأت به من إلفات النظر إلى خلق السموات والأرض وفيه بحوث نعرضها فيما يلي :

فمن ذلك قوله : ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [2] فقوله : لقوم يعقلون دعوة إلى العقل لتأمل والنظر فإن ذلك يحدث له روعة ويفتح عليه رؤية من الفكر يجول في مصنوعات الله وأقرب شيء إلى العقل ما تقع عليه الحواس من معالم أرضية تتفق في ظاهر الأمر في الدقة والغذاء والجو وتختلف في ثمارها في الطعم واللون ولا يكون ذلك إلا من تدبير خالق حكيم ومدبر عليم (يسقى بماء واحد والأكل مختلف) وفي هذا رد على الفلاسفة الحمقاء القائلين : بأن الواحد لا يصدر عنه إلا أثر واحد ونسوا أن الواحد المختار يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ويطيل الليل في بقعة والنهار في بقعة أخرى ويجعلهما متعادلين في بقعة ثالثة ليتناسب ذلك مع البقعة وفيه من اختلاف الحرارة والبرودة والظلمة والنور ما يحملنا على التأمل في هذا النظام المحكم المشار إليه بقوله تعالى : ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [3] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤ .

(٣) سورة يس الآية ٣٧، ٣٨، ٣٩ .

وعلى أية حال فاختلاف الليل والنهار وتعاقب النور والظلام وتوالى الأشراق والعتمة ذلك الفجر وذلك الغروب كم أهتزت مشاعر وكم وجفت لها قلوب وكم كانت أعجبة الأعاجيب ثم فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار إلا القلب المؤمن الذي يتجدد في حسه هذه المشاهد ويظل ابدا يذكر يد الله فيها فيتلقاها في كل مرة بروعة الخلق الا يتعجب الإنسان إذا نظر إلى ارتفاع القطب تسعين درجة فيكون هناك معدل النهار منطبقاً على الأفق وتصير الحركة رحبية ويعطل طلوع الغروب أصلا ويكون النصف الشمالي من تلك البروج أبدى الظهور والنصف الجنوبي أبدى الخفاء ويصير نصف السنة ليلا ونصفها نهارا . فيالها من حكمة باهرة وقدرة قادرة لا ينتفع بها إلا أولوا الألباب .

قال تعالى : ﴿يأيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وانتم تعلمون﴾[1] فالذي جعل الأرض فراشا ممهداً وسخر لنا كل ما على وجهها واعدها لنا اعدادا تاما لتكون سكنا مريحا وملجأ واقيا كالفراش والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه ينسون هذا التوافق الذي جعله الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة ولو فقد عنصرا واحدا من عناصر الحياة في هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسي في غير البيئة التي تكفل لهم الحياة ولو نقص عنصرا واحدا من عناصر الهواء عن القدر المرسوم لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة وإذا نظرنا إلى السبب الثالث وهو : كون بعضها بحريا وبعضها سهليا وبعضها

(١) سورة البقرة الآية ٢١ .

جبليا ويتركب بعض هذه الأقسام من بعض فتختلف أحوالها اختلافا شديداً دل ذلك على قدرة الله وحكمته .

قال تعالى : ﴿وكأي من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون﴾ (١) ان وحدة الأولوهية هي القاعدة الكبيرة التي يقوم عليها التصور الإيماني فلم يكن هناك جدل حول الإعتقاد بوجود إلـه تختلف التصورات حول ذاته وصفاته وحول علاقته بالخلق ولكنها لا تنفي وجوده ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة حقيقة وجود إله إلا في هذه الأيام الأخيرة .

يقول سيد قطب : حين نبتت نابتة منقطعة عن أصل الفطرة تنكر وجود الله وهي : نابتة شاذة لا جذور لها في أصل هذا الوجود ومن ثم فمصيرها حتما إلى الفناء والإندثار من هذا الوجود الذي لا يطبق تكوينه ولا تطيق فطرته بقاء هذا الصنف من الخلائق المقطوعة الجذور وهذه الطريقة في تبيين الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون العجائب التي تفقدنا الألفة حدتها وغرابتها وإيحاآتها للقلب والحس وهي دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين متوفر الحس حيي القلب . وكم في هذه المشاهدة المكررة من عجيب وكم فيها من غريب(٢) وكم أختلجت العيون والقلوب وهي تطلع عليها أول مرة ثم ألفتها ففقدت هزة المفاجأة ودهشة المباغتة وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب تلك السموات والأرض هذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والأفاق المسحورة والعوالم المجهولة هذا التناسق في مواقعها وجريانها في تلك الفضاء الهائل الذي يدير الرءوس هذه الأسرار الذي توسوس

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

(٢) في ظلال القرآن ج٢ ص ٤٩، ٥٠ ط ٢ .

للنفس وتلتفت في رداء المجهول هذه السموات والأرض ومافيها في الدلائل على وجود خالق مدبر حكيم مختار .

وقبل أن أدخل في بحث كروية الأرض وما قاله العلماء في هذا الموضوع من قديم وحديث أود أن أقول أن الإسلام لا يخالف حقيقة فكل حقيقة ثابتة فالإسلام لا يمانع فيها لأنه دين الحق والقرآن حق وما جاء فيه حق علمه من علمه وجهله من جهله فإذا اكتشف العلم الحديث شيئاً لا تعرفه فلا ينبغي أن ننفيه بحجة أنا لا نعرفه يقول أحمد زكي في كتابه : ثورة الإسلام منذ تبين للمستشرقين الأمريكيين أن بين المباديء الإسلامية العليا وبين المثاليات الأدبية وشائج قوية لذلك إزدادت عنايتهم بدراسة تلك المباديء وتدريبها وهم إذ صنعوا ذلك يؤدون للناس خدمة مزدوجة بل خدمة إنسانية رفيعة قوامها التقريب الروحي والفكري بين نحو مائتي مليون من البشر شرقا ومثل عددهم غربا وإذا كان عدد من المستشرقين القدامى لا يزال مغرما بتدريس الخرافات والبدع التي الصقت بالإسلام في عصور الجاهلية والإنحطاط كأنها من أركان الإسلام فثمة غيرهم من المستشرقين يعني : بروح من الإسلام الحقيقية وبمبادئه العليا فيعمل على درسها وتدريسها متضافرا مع المثقفين من ابناء الإسلام أنفسهم الذين أخذوا في العهد الأخير يضلعون بأعباء التدريب الإسلامي والعربي في الجامعات والمعاهد وأعطى الدكتور مباديء إسلامية وذكر في المبدأ الأول تحري الحقيقة وترك التقاليد الوهمية لأن التقليد الأعمى بالتقاليد الوهمية يقضي بطبيعة الحال على حركة البحث عن الحقيقة في كل مكان ويجعلنا نشيح بوجوهنا عن مصادر النور المنوعة أو قد نكتفي بالضئيل منها في حين أن من الواجبات المقدسة على المسلمين البحث عنها في جميع مظانها والأستضاءة بنورها أينما كان مصدره[1][2]

---

(١) ثورة الإسلام ص ٨، ٨٣ الدكتور أحمد زكي أبو شادي .

(٢) المسلمون وعلم الفلك ص ٢٢ محمد محمود الصواف .

إذ أن الإسلام جاء مكملا وصاقلا للعقاد السابقة وجاء داعيا إلى الإهتمام بكل معرفة جديدة لا قاضيا على أي خير سابق .

أقول وبالله التوفيق : ما قدمته تمهيدا لما سأدخل فيه بحول الله تعالى من أقوال العلماء المعاصرين حول دوران الأرض وعدمه وهذا المضوع إختلفت فيه أنظار العلماء اختلافا بينا وتضاربت أقوالهم.

ففضيلة الشيخ بن باز لا يقول به بل يقول أن القول به كفر ويقول بالحرف أن الأرض قارة ساكنة ارساها الله بالجبال وجعلها أوتادا لها فمن زعم خلاف ذلك يقول الشيخ بن باز وقال أن الشمس ثابتة لا جارية فقد كذب الله وكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الشيخ في فتاه : وكل من قال هذا القول فقد قال كفرا وضلالا لأنه كذب الله ورسوله وقد اثار ما قاله الشيخ ضجة كبيرة جداً لأن حركة الأرض وحركة الشمس كل في فلك يسبح بقدرة الله وتدبيره من المسلم به اليوم ولا محذور فيه واصبح كأنه شيء معروف لدى العامة والخاصة.

وقد قام / محمد محمود الصواف بالرد على ما قاله الشيخ واستبعده كما تناول المودودي الموضوع وقال أن الشيخ كان يحسن به أن لا يخوض في هذا الموضوع لأن الذي ورد في كتاب الله تعالى في بعض آياته عن الأمور الكونية لم يرد ليعلم الإنسان علم الطبيعة وإنما ورد ليلفت نظر الإنسان إلى ما في آيات الله الكونية من دلائل قاطعة وحجج دامغة على توحيد الله تعالى والبعث بعد الموت وقد راعت الحكمة الإلهية في تحقيق هذه المصلحة أن يشاهد الانسان آيات الله في الكون ويتلقي فيها دروسا وعبرا في أضواء ما وصل إليه علمه بأمور الكون .

ومع أن الذي جاء في القرآن من آياته التي تشير إلى الأمور الكونية لا يخالفه الواقع ولا تعارضه الحقيقة الكونية ولن يكون ذلك ابداً إلا إن القرآن

لم ينهج لذكره اسلوبا يصطدم[1] مع علوم الإنسان في عصر من العصور اصطداما صريحا يحول بين الإنسان وبين إيمانه بالله تعالى وبكتابه لأجل ذلك لم يصرح القرآن بصورة قاطعة في آية من آياته بدوران الأرض وثبوت الشمس أو ثبوت الأرض وجريان الشمس حولها .

أما قوله تعالى : ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ فليس معناه أن الشمس تدور حول الأرض بل معناه أن الشمس سارية إلى مقرها الذي لا يعلمه الإنسان وهذا المدلول لا يعارضه علم البيئة في العصر الحاضر وكذلك أن القرآن لم يصرح في آية من آياته بكون الأرض ثابتة ساكنة وكون الشمس دائرة حولها وان الإنسان في القرون الماضية كان يفسر الرواس والأوتاد في نطاق معرفته وحسب علمه بالأمور الكونية آن ذاك ويحق له أن يفسرها في ضوء ما اكتشفه من الأمور الكونية وأن الله تعالى لم يجعل إيماننا وعقيدتنا مربوطان بعلم عصر من العصور بحيث إذا تغير هذا العلم وتبدل اضطر الإنسان إلى أمرين : إما أن يؤمن بالله تعالى وينكر صحة العلم أو يكفر بالله تعالى ويؤمن بصحة العلم [2] فإذا كان الإنسان القديم مسلما صحيح الإسلام على رغم قوله بثبوت الأرض كذلك لاشك في صحة إسلام الإنسان الحاضر على اعتقاده بدوران الأرض .

يقول الشيخ المودودي في آخر كلامه : وأنا أوافق رأي فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف .

أقول وبالله التوفيق : القرآن كلام الله وهو الحق الثابت إلى يوم القيامة وقد بينه رسول الله ﷺ .. قال تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم﴾[3] وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصواف الذي أنضم له رأي

---

(١) المسلمون وعلم الفلك ص ٢٢ السعودية للنشر محمد محمود الصواف .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٩ .

(٣) سورة النحل الآية ٤٤ .

المودودي يرى كل منهما حركة الأرض وكذلك الشيخ الطنطاوي يقول بالحرف : ودوران الأرض مشاهد مقطوع به كان معلوما علما نظريا بالأدلة العقلية فصار معلوما ضرورياً بالحس ومشاهدة الأرض من المركبات الفضائية وعرض الصور التي التقطت لها بالرائي : أي التليفزيون . وصار القول بدوران الأرض من البديهيات التي لا نزاع فيها اليوم بين الناس أما الآيات التي يرى فيها منكروا الدوران دليلا لهم كقوله تعالى : ﴿والقي في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾[1] فليس فيها دليل لأن ماد عند العرب بمعنى : مال وهو : باب معروف والميلان : حركة إضطرابية والسير : حركة إنتقالية فإذا نفي الله عنها الميلان فلا يفهم منه نفي الحركة الإنتقالية بل ربما كان في الآية إشارة إلى سيرها لأن الآية دلت على أن الجبال مثل الثقل للأرض ليلا تميد أي : تضطرب في سيرها كالزورق إذا كان فارغا وضعوا فيه الحجارة أو أكياس الرمل ليلا يضطرب به الموج فيضطرب .

أقول وبالله التوفيق : بعض العلماء يقول أنه ليس من دليل على الحركة ولا عدمها ويعني : الدليل القطعي وعلى مدعي عكس هذا أن يأتي بالدليل

وما ساقه بعض المشايخ واعتبره دليلا ليس فيه ما يعتبر نصا في المسألة أو دليلا صريحا على دعواه وهذا رأي المودودي والطنطاوي والصواف وعلى العكس منهم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز وقد قدمنا رأي الجميع وحججهم ومما لا شك فيه ان الأدلة اليوم علىحركة الأرض ظاهرة دامغة لمشاهدة العين إياها فمثلا يوجد بعض البلدان الان تذهب الناس إليه وتأتي منه ويقولون أن الشمس تغيب عنه ستة أشهر فقد وجدت من أخبرني بذلك بطريقة التواتر المقطوع بصحته فلو كانت الأرض لا تدور لظهرت عليها الشمس مرة واحدة والله أعلم .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٠ .

يقول عبد الرزاق نوفل في كتابه[1]: الله والعلم الحديث الأرض كوكب من الكواكب التي تدور حول الشمس وتتبعها في سيرها اينما سارت وهي : الكوكب الخامس من حيث الحجم والثالث من حيث القرب من بين الكواكب التسعة التي تتكون منها المجموعة الشمسية والأرض تكاد تكون كرة إلا أنها منبعجة قليلا عن خط الأستواء [2].

ويقول عبد اللطيف أبو الوفاء : أن السماء تدور لا الأرض ولا يشعر الإنسان بحركة الأرض لأنها تدور به وبكل ما حوله وتحت رجليه فلا يتغير أفقه ولا الأماكن التي كانت تحيط به فسهولة دورانها مع تساوي الدورة وإنتقال كل شيء بها يجعل حركة الأرض غير محسوسة أما الأشياء التي تدور بها معنا فيترأى لنا أنها تغير مركزها على الدوام كما لو كنا في مركب يسير محاذيا الساحل فإن تحركه بنا وبكل ما عليه وثبوت الساحل يجعلنا نتوهم أن الساحل هو المتحرك والمركب ثابت فهذا الناموس عينه هو : الذي جعلنا نرى الأجرام الفلكية متحركة بدون أن نشعر بحركة الأرض فيتقرر عندنا بمرأى الظاهر أن الحركة لتلك الأجرام .

أقول وبالله التوفيق : كل هذه المعلومات المتعلقة بالأرض ودورانها وما يشغله الماء منها وطبقاتها وعمرها ودرجات حرارتها اصبح اليوم لكثرة الأدلة عليه والبراهين شبه القطعية من المسلم به عند الكثير وليس اكتشافه جديداً فقد سبق إليه علماء الإسلام وعلم الفلك كان من أول العلوم التي لفتت أنظار علماء المسلمين في المشرق وجلبت إهتمامهم وعنايتهم بها ولم يكن الإهتمام بعلم الفلك مقصورا على العلماء المختصين فقط بل أن الكثير من خلفاء المسلمين والأندلس في المغرب وبعض السلاطين السلاجقة وأمثالهم من

---

(١) الفلك الحديث ج٣٠١ ط١ عبد اللطيف أبو الوفاء .

(٢) الفلك العام ص ١٦ ترجمة الدكتور حلمي عبد الرحمن مكتبة النهضة المصرية .

المنحدرين من سلالة جنكيز خان أصبحوا شديدي الشغف والتعلق بهذا العلم [1] .

ولقد ظهرت المراصد الفلكية في الأمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف وأكتسبت مراصيد بغداد والقاهرة وقرطبة وطيطلة وسمرقند شهرة فائقة بقي أثرها مئات السنين وكانت نتائج أبحاثها هي المرجع والمعتمد عند علماء الأفلاك في القديم والحديث ويرجع تاريخ مدرسة الفلك في بغداد إلى خلافة أبي جعفر المنصور العباسي وهو الخليفة الثاني وقد كان هو نفسه عالما في الفلك ولوعا في علم السماء .

ويتضح لنا من هذا الإستعراض البسيط أن علماء المسلمين أول من أشتغل بعلم الفلك بعد اليونانيين االأقدمين وأول من ألف فيه الكتب والمصنفات الطوال وأول من أهتم إهتماماً كبيراً بأنشاء المراصيد الفلكية في العالم فهم السباقون في كل علم وخير والحمد لله وهذا يفرضه عليهم واجبهم الديني والتفكر في خلق هذه الكواكب العجيبة التي خلقها الله ﴿في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره آلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ .

ولا شك أن الإكثار من ذكر السموات والأرض في كتاب الله العزيز يدل على عظم شأنهما وأن له سبحانه وتعالى فيهما اسراراً عظيمة وحكماً بالغة فلا تصل الأفهام والعقول إلى معرفة ذلك إلا بتفكير دائم .

وقد تكلمت على بعض عجائب صنعه فيما يتعلق [2] بالأرض أثناء كلامي على الآيات الأرضية والآن ننتقل إلى باقي هذه الآيات الكونية لنرى عجائب صنعه في خلق السماوات هذا الغطاء المبسوط بغير عمد .

---

(١) المسلمون وعلم الفلك ٢٩/٣٧ .

(٢) الفخر الرازي ج٢ ص ١٠٦ ط ١ .

وقد سمى الله سبحانه وتعالى السموات بأسماء تدل على عظم شأنها : سماء . وسقفاً محفوظاً ، وسبعاً طباقاً، وسبعاً شداداً.[1] ثم ذكر عاقبة امرها : ﴿وإذا السماء فرجت﴾ ﴿وإذا السماء كشطت﴾ ﴿يوم تمور السماء مورا فكانت وردة كالدهان﴾ وذكر مبدأها في آيتين فقال : ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ وقال جل ذكره : ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما﴾ فهذا الأستقصاء الشديد في كيفية حدوثهما وفنائهما يدل على أنه سبحانه وتعالى خلقهما لحكمة بالغة كما بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا﴾ .

أقول وبالله التوفيق : والسماء مع هذا قبلة الدعاء فالأيدي ترفع إليها والأوجه تتوجه نحوها وهي منزل الأنوار ومحل الصفا والأضواء والطهارة والعصمة عن الخلل والفساد وقد قدم الله ذكر السموات على الأرض في الآية المذكورة الكونية التي نحن بصدد الكلام عليها فقال جل ذكره : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيي به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [2] .

ويرى البعض من العلماء تفضيل السماء على الأرض وذلك من أوجه الأول أن الله زينها بسبعة أشياء : المصابيح : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ . والقمر : ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾ وبالشمس : ﴿وجعل الشمس سراجا﴾ وبالعرش العظيم . وبالقلم : ﴿ن والقلم﴾ وبالكرسي :

---

(١) الفخر الرازي ج٢ ص ١٠٦ ط ١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ وباللوح : ﴿في لوح محفوظ﴾ .

أقول وبالله التوفيق : هذه الأشياء التي تقدمت ذكرها الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية التي تقدمت آنفا وعندي على هذا ملاحظات .

أولاً : أن مسألة تفضيل السماء على الأرض أو العكس لا ينبغي الجزم بشيء فيه إلا بدليل قطعي وليس عندنا لأن كل ما في الأمر هو ذكر السماء ولاشك أن الأرض كذلك ذكرت كثيراً في القرآن العظيم قال تعالى : ﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم﴾ . وقال جل ذكره : ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ وقال تعالى : ﴿والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾ والزينة التي زين بها السماء وجعلها المفسر من ميزات الفضل فإن الأرض كذلك زينت بأثر المطر وما يحدث من اخضرار ومياه وعشب ونخل إلى غير ذلك من زينة الأرض وأما الكرسي واللوح ـ والقلم ـ فلا يعرف على وجه التحقيق هل في السماء أم هم محيطون بهذا الكون ـ كما قال تعالى : ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ وكذلك القمر فلو كان في السماء لما كان للقول بالوصول اليه معنى : وذلك يجعلنا نتأكد من عدم وجوده في السماء لأن السماء تطلق في اللغة على كل عال كما قال تعالى : ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ أي : في جهة السماء .

وبعد هذا التعليق البسيط نتابع الكلام على هذه الآية الكونية لنرى تصريف المالك في ملكه وكثرة ما سخر للعباد من وسائل الحياة على وجه هذه الأرض من جري الفلك في الماء وبث الدواب وتصريف الرياح ولاشك أن من منحه الله الإنتفاع بعقله يتأكد عند أول وهلة أن هذا التصريف والتسخير في الفلك والبحار والرياح لا يقدر عليه إلا من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وأن هذه الأشياء لابد لها من خالق يتصرف فيها ويدبر أمرها وأن ذلك هو : الله الملك الخلاق المدبر .

يقـول ابـن جريـر الـطبري [1] : في الكـلام على سبب نزول الآية : اختلف أهل التأويـل في السبب الـذي من أجلـه أنـزل الله سبحانـه وتعالى هذه الآية على نبيه ﷺ فقال بعضهم : أنزلها عليه احتجاجاً له على أهـل الشرك به من عبدة الأوثان وذلك أن الله تعالى لما أنـزل على نبيـه ﷺ : ﴿وإلٰهكـم إلٰـه واحـد لا إلٰـه إلا هو الـرحمن الـرحيم﴾ فتـلا ذلك على أصحابـه وسمع به المشركـون من عبـدة الأوثـان . قال المشركـون : ومـا الحجة والبرهـان على ما تقولـون ونحن ننكـر ذلك [2]. فأنـزل الله : ﴿ان في خلـق السمـوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ الآية . إحتجاجاً لنبيه ﷺ على الذين قالـوا ما ذكرنـا عنهم فبهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء .

وقـال آخـرون بل نزلت هذه الآية على النبـي ﷺ ليعلمهـم فيها أن لهم في خلق السموات والأرض وسائر ما ذكـر آيـة بينـة على وحدانيـة الله وأنـه لا شريك له في ملكه لمن يعقل وتدبر ذلك بفهم صحيـح وقـد كثرت الأقـوال أن الله تعـالى نبـه عبـاده على الدلالـة على وحدانيتـه وتفـرده بالألوهيـة دون كل ما سواه من الأشياء بهذه الآية وجائز أن تكون فيما قاله عطاء وفيما قاله سعيد بن جبير وأبـو الضحـي ويـرى ابـن جريـر أن لا خبر عنـده بتصحيـح قول أحـد الفريقين .

ومعنى خلق الله الأشياء :

ابتداعه إياهـا بعـد أن لم تكـن موجـودة واختـلاف الليـل والنهار يعنـي : تعاقبهمـا وإنما الأختـلاف في هذا الموضع هو : الأفتعال من خلـوف كل واحد منهما الآخر كما قال تعـالى : ﴿وهـو الـذي جعـل الليـل والنهار خلفـة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ [3] .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ج٢ ص ٦١ ط ٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ج٢ ص ٦٤، ٦٥ ط ٣ .

(٣) سورة الآية ٦٢ .

بمعنى أن كل واحد منهما يخلف مكان صاحبه إذا ذهب هذا الليل جاء النهار بعده — وإذا ذهب النهار جاء الليل خلفه ومن ذلك قيل خلف فلان فلانا في أهله بسوء ومنه قول زهير :

بها العين والآرام يمسين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

والليل جمع ليله نظير التمر جمع تمرة وقد يجمع على ليال فيزيدون في جمعها مالم يكن في واحدتها .

وأما النهار فإن العرب لا تكاد تجمعه لأنه بمنزلة الضوء وقد سمع في جمعه : النهر — ولو قيل في جمع قليله (أنهرة) كان قياسا .

وآية السموات [1] ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها ودل ذلك على القدرة وخرق العادة وقد أوردت بعض أدلته مما تقدم.

ومن هذه الآيات الباهرة التي نحن بصدد بيانها : الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس . قال القرطبي : الفلك : السفن وافراده وجمعه بلفظ واحد ويذكر ويؤنث وليست الحركات في المفرد تلك بأعيانها في الجمع بل كأنه بنى الجمع بناء آخر يدل على ذلك توسط التثنية في قولهم فلكان والفلك المفرد مذكر قال تعالى : ﴿في الفلك المشحون﴾ فجاء به مذكراً. وقال : ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ فجاء به مؤنثاً ويحتمل واحداً وجمعا قال تعالى : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾ فجمع فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المركب فيذكر وإلى السفينة فيؤنث وقيل واحده فلك كمثل أسد وأسد وخشب وخشب وأصله من الدوران ومنه فلك السماء التي تدور عليه النجوم وسميت السفينة فلكا لأنها تدور في الماء أسهل دوران ووجه الآية في الفلك تسخير الله اياها حتى تجري على وجه الماء ووقوفها فوقه مع ثقلها وأول من عملها : نوح عليه السلام وقد استدل

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ١٩٤ .

القرطبي بهذه الآية على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة أو عبادة كالحج والجهاد ومن السنة حديث أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال[1] : يارسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ــ الحديث وحديث أنس بن مالك في قصة أم حرام أخرجهما الأئمة مالك وغيره .

أقول وبالله التوفيق : الحديث الذي أشار القرطبي إلى جزء منه هنا جاء بتمامه في كثير من كتب السنة وهذا نصه . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله . انا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر . فقال رسول الله ﷺ : « هو الطهور ماؤه الحل ميته » رواه الخمسة وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح الحديث أخرجه أيضاً ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما وابن الجارودي في المنتقى والحاكم في المستدرك والدارقطني والبيهقي في سننهم وابن ابي شيبة وحكى الترمذي عن البخاري تصحيحه وتعقبهُ[2] ابن عبد البر بأنه لو كان صحيحاً عنده لأخرجه في صحيحه ورده الحافظ وابن دقيق العبد بأنه لم يلتزم الأستعاب ثم حكم ابن عبد البر مع ذلك بصحته لتلقى العلماء له بالقبول فرده من حيث الأسناد وقبله من حيث المعنى .

أقول وبالله التوفيق : الحديث صحيح مقبول عند العلماء مع أن فيه علل كثيرة منها الجهالة بسعيد بن سلمة ــ والمغيرة بن أبي بردة المذكورين في أسناده لأنه لم يرو عن الأول إلا صفوان بن سليم ولم يرو عن الثاني إلا سعيد ابن سلمة وفيه أيضاً الاختلاف في اسم سعيد بن سلمة وعلل أيضاً بالأرسال لأن يحيى بن سعيد أرسله وبالأضطراب وقد لخص الحافظ ما قيل فيه فقال ما حاصله ومداره على صفوان بن سليم عن سعيد بن سلمة عن المغيرة بن أبي

---

(١) القرطبي ج٢ ص ١٦٤ دار الكتب المصرية ط ١٣٨٢هـ .

(٢) نيل الأوطار ج١ ص ١٥ .

بردة عن أبي هريرة قال الشافعي : في اسناد هذا الحديث من لا أعرفه، قال البيهقي : يحتمل أنه يريد سعيد بن سلمة أو المغيرة أو كليهما ولم ينفرد به سعيد عن المغيرة فقد رواه عنه يحيى بن سعيد الأنصاري أنه أختلف عليه فيه والمراد عندي هنا اعطاء نبذة عن هذا الحديث لكونه عَنَّ في الموضوع وليس فيه خروجا عن المطلب الذي نحن فيه فإن العلماء ذكروه في هذه الآية عند الكلام على تفسيرها كما بينت قريباً عن القرطبي في استنتاجه لجواز ركوب البحر مطلقاً من الآية وعندما أوردت الحديث كما فعل المفسرون كان ضروريا إظهار ما فيه من ناحيتي السند والمتن وقد حاولت عدم الاسهاب والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد .

وقد ذكر القرطبي بصيغة التمريض أنه روى منع ركوب البحر عن عمر رضي الله عنه [1] وكذلك عمر بن عبد العزيز ـــ والقرآن والسنة يردان هذا القول ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى النبي ﷺ عنه الذين قالوا له انا نركب البحر ومعروف في الأصول أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة وهذه الآية وما كان مثلها نص في الغرض واليها المرجع فيه وقد تؤول ما روى عن العمرين في ذلك بأن ذلك محمول على الأحتياط وترك التقرير في طلب الدنيا والاستنكثار منها وأما في أداء الفرائض فلا.

ومما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله سبحانه وتعالى ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق في العدوتين [2] وقسم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جلها إلا بشق البحر لها فسهل الله سبيله بالفلك .

قال ابن العربي : قال أبو عمر وقد كان مالك يكره للمرأة الركوب للحج في البحر وهو للجهاد لذلك اكره والقرآن والسنة يردان قوله لأن بعض اصحابنا من أهل البصرة قال : إنما كره مالك ذلك لأن السفن بالحجاز صغار

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ١٩٥/١٩٦ .

(٢) العدوة = شاطيء الوادي .

وأن النساء لا يقدرن على الأستتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها وكان الطريق من المدينة إلى مكة في البحر ممكنا فلذلك كره مالك ذلك وأما السفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس .

قال : والأصل أن الحج على كل من استطاع إليه سبيلا من الأحرار البالغين نساء كانوا أو رجالا إذا كان الأغلب من الطريق الأمن ولم يخص بحرا من بر .

قال أبو عبد الله : قلت : دل الكتاب والسنة والمعنى على إباحة ركوبه للمعنيين جميعا العبادة والتجارة فهي الحجة وفيها الأسوة إلا أن الناس في ركوب البحر تختلف أحوالهم فربُ راكب يسهل عليه ذلك ولا يشق وآخر يشق ويضيق عليه كصاحب الميد المفرط ومن لم يقدر معه على اداء فرائض الصلاة ونحوها من الفرائض فالأول ذلك له جائز ــ والثاني يحرم عليه ويمنع منه .

ولا خلاف بين أهل العلم أن البحر إذا هاج وارتج لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه في حين ارتجاجه ولا في الزمن الذي الا غلب فيه عدم السلامة وإنما يجوز عندهم ركوبه في زمن تكون السلامة فيه الأغلب فإن الذين يركبونه حال السلامة وينجون لا حصر لهم والذين يهلكون فيه محصورون .

وأرى أنه لا داعي للخلاف في ركوبه بعد أن تقدمت الناس وتغلبت على أخطاره قوله تعالى لي هذه الآية : ﴿بما ينفع الناس﴾ أي : بالذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التي تصلح بها أحوالهم ويركبون البحر تكتسب الأرباح وينتفع من يحمل اليه المتاع أيضاً هذا قول أبي عبد الله القرطبي في تفسيره .

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ١٩٦ .

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره [1] قوله تعالى : ﴿بما ينفع الناس﴾ فجعل المعنى مما ينفع الناس في البحر قال في روح المعاني في الكلام على تفسير جري الفلك في البحر ويختلف جريانها شرقا وغربا على حسب تسليك المقادير الألهية لما في هاتيك المسالك وقال في قوله تعالى : ﴿بما ينفع الناس﴾ وهو : انزال المطر ونشر ما كان دفينا في الأرض بالأحياء وفي ذلك النفع التام والفضل العام .

أقول وبالله التوفيق : بعد أن بينت أقوال العلماء في هذه الآية بقي على بيان كيفية الاستدلال بجريان الفلك في البحر على وجود الله وهي كما قال : الفحر الرازي من أوجه [2] :

أحدها : أن السفن وإن كانت من تركيب الناس إلا أنه تعالى هو الذي خلق الألات التي بها يمكن تركيب السفن فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك وكذلك بفضل الله سخر الرياح فصارت عونا لنا على تحريكها ليتكامل النفع بها .

وثانياً : قوى سبحانه وتعالى قلوب الناس لركوبها ولو خاف الإنسان وضعف قلبه ما ركبها عندئذ فلا توجد فيها المصلحة الحاصلة الآن للعباد وقوام أمر منافعهم وتجارتهم .

وثالثاً : أنه خص كل طرف من أطراف العالم بشيء معين وأحوج الكل إلى الكل فصار ذلك داعيا يدعوهم إلى اقتحامهم هذه الأخطار في هذه الأسفار ولولا أنه سبحانه خص كل طرف بشيء وأحوج الكل اليه لما ركبوا السفن [1] فالحامل ينتفع به لأنه يربح والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه .

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ٦٤ ط ٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج٤ ص ٢٢٢ .

(١) الفخر الرازي ج٤ ص ٢٢٢ ط١ .

رابعاً : تسخير الله للبحر لحمل الفلك مع قوة سلطان البحر إذا هاج وعظم الهول فيه إذا أرسل الله الرياح فأضطربت امواجه وتقلبت مياهه .

أقول وبالله التوفيق : يكفينا هنا ما في البحار من الحيوانات العظيمة ثم أن الله تعالى يحفظ السفن عنها ويخلصها إلى شواطيء النجاة والسلامة وكذلك ما في البحار من هذا الأمر العجيب وهو قوله تعالى :
﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ [1] . وقال : ﴿هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج﴾ ثم أنه تعالى بقدرته يحفظ البعض عن الإختلاط بالبعض وكل ذلك مما يرشد العقول السليمة إلى الأفتقار الشديد إلى مدبر أمرها وقادر يحفظها ويرى الفخر الرازي على أن قوله تعالى : ﴿بما ينفع الناس﴾ دال على إباحة ركوبها وعلى إباحة الأكتساب والتجارة والأنتفاع باللذات ومعنى ذلك عنده أنه وصف للسفينة وبعد أن قدمت الكلام على جري الفلك في البحر وسيرها بما ينفع الناس وبينت أقوال العلماء المفسرين في هذا الموضوع ننتقل إلى النقطة الأخرى وهي : إنزال المطر من السماء لنرى عجائب أخرى تجبر صاحب العقل السليم على الخوف من الحي القيوم الذي خلق الكون على هذا النظام الدقيق المحكم الذي لا يقدر قدره وصدق الله العظيم : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قوله تعالى : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيٰ به الأرض بعد موتها﴾ أعلم أن دلالة المطر وإنزاله على قدرة الله ووجوده تعالى من وجوه احدها أن تلك الأجسام وما قام بها من صفات الرقة والرطوبة والعذوبة لا يقدر أحد على خلقها إلا الله تعالى .

---

(١) سورة الرحمن الآية ١٨ .

قال تعالى : ﴿قل ارأيتم إن اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين﴾[1] .

وثانياً : أنه تعالى جعله سبباً لحياة الإنسان وتوقف سبل الحياة مع عدم وجوده قال تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ، وقال تعالى مذكرا عباده بنعمة [2] إنزال المطر : ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ والماء كما أنه سبب لحياة الإنسان سبب لرزقه كذلك قال تعالى : ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ .

ثالثاً : أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظام تبقى معلقة في جو السماء وذلك من الآيات العظام .

رابعاً : أن نزولها عند التضرع واحتياج الخلق إليه مقدر بمقدار النفع وذلك من الآيات العظام أيضاً مع أنه يؤمر بالتوجه إلى البلاد الميتة قال تعالى : ﴿فسقناه إلى بلد ميت﴾ وما تكتسي به الأرض من زينة بعد نزول المطر آية أخرى . قال جل ذكره : ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج﴾ .

يقول السيد قطب : كل هذه مشاهد [3] لو عاد الإنسان تأملها لما يوحي القرآن للقلب المؤمن بعين مفتوحة وقلب واع لرجف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها هذه الحياة التي تدب في الأرض من أين جاءت ؟

كانت كامنة في الحبة والنواة ولكن من أين جاءت إلى الحبة والنواة؟ أصلها؟ مصدرها الأول أنه لا جدوى للهرب من مواجهة هذا السؤال الذي

---

(1) سورة الملك الآية ٣٠ .

(2) الفخر الرازي ج٤ ص ٢٢٢ ط ١ .

(3) في ظلال القرآن ج٢ ص ٥١ ط ١ .

يلج على الفطرة قال أبو حيان : كنى بالأحياء عن سرعة ظهور ما أودع فيها من النبات وبالموت عن استقراره فيها وعدم ظهوره وهما كنايتان غريبتان لأن ما برز فيها بالمطر يجعل تعالى فيه القوة الغذائية والنامية والمحركة وما لم يظهر ، فهو كامن فيها كأنه دفين فيها وهي له قبر .

قال السيد قطب [١] : لقد حاول الملحدون تجاهل هذا السؤال الذي لا جواب عليه إلا وجود خالق قادر على إعطاء الحياة للموات وحاولوا طويلا أن يوهموا الناس أنهم في طريقهم إلى إنشاء الحياة بلا حاجة إلى آلة ثم أخيرا إذا هم في أرض الألحاد والجاحد الكافر ينتهون إلى نفض أيديهم والأقرار بما يكرهون : استحالة خلق الحياة وأعلم علماء روسيا في موضوع الحياة هو الذي يقول هذا الآن .

ومن قبل راوغ دارون[٢] صاحب نظرية النشوء والأرتقاء من مواجهة هذا السؤال .

وقد تعرض الفخر الرازي لحياة الأرض [٣] ونزول المطر بشيء من التفصيل والرد على بعض ما قد يرد من التساؤلات حول نزول المطر فقال : فإن قيل أفتقولون أن الماء ينزل من السماء على الحقيقة أو السحاب أو تجوزون ما قاله بعضهم من أن الشمس تؤثر في الأرض فيخرج منها أبخرة متصاعدة فإذا وصلت إلى الجو البارد بردت فثقلت فنزلت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز فاتصلت فتولدت من اتصال بعض تلك الذرات بالبعض قطرات المطر قلنا بل نقول أنه ينزل من السماء كما ذكره الله تعالى وهو الصادق في خبره وإذا كان قادراً على إمساكه في السحاب فأي بعد أن يمسكه في السماء .

---

(١) البحر المحيط لابي حيان ج١ ص ٤٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن ج٢ ص ٥١ .

(٣) الفخر الرازي ج٤ ص ٢٢٣ ط ١ .

أقول وبالله التوفيق : لا شك أن المطر ينزل من السماء والسماء في اللغة لا تطلق على السقف المحفوظ فقط بل تطلق على كل ما هو عال فوقنا وقد قدمت بعض الأدلة على هذه النقطة من ضمنها قوله تعالى : ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ أي : في جهة السماء وسواء كان المطر في السماء وأمسكه الله فلا غرابة في الموضوع فالله سبحانه وتعالى هو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض ﴿والطير في السماء ما يمسكهن إلا الله﴾ والذي يهمنا هو الأتعاظ بنزوله وتكوينه .

أما كيف ينزل وكيف يتكون وكيف يرتفع وينخفض فهذا شيء ليس فيه كبير فائدة فوق الأتعاظ وهو حاصل لمن نور الله قلبه [1] بدون معرفة تلك الأسباب الخفية العائدة إلى قدرته تعالى .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ يعني به الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق وجعل منه المخزون عدة للأنتفاع في غير وقت نزول المطر ونحن نسلم أن المطر هو البخار المتصاعد ولا يقدح ذلك في قدرة الله الذي وضع السنن ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا .

قال أبو حيان في البحر [2] عند تفسيره للآية التي نتكلم عليها حالياً قوله : ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ ، أي : من جهة السماء من الأولى لابتداء الغاية يتعلق بأنزل وفي أنزل ضمير نصب عائد على ماء، أي : والذي أنزله الله من السماء ، ومن الثانية مع ما بعدها بدل من قوله: ﴿من السماء﴾ بدل إشتمال فهو على نية تكرار العامل أو لبيان الجنس عند من يثبت ذلك أي : يثبت لها هذا المعنى . أو للتبعيض .

---

(١) تفسير ابن جرير ج٢ ص ١٩١ .

(٢) تفسير البحر المحيط : ٤٦٥/١ ، أبو حيان .

ويتعلق بأنزل ولا يقال كيف تتعلق بأنزل من الأولى والثانية لأن معناهما مختلفان .

وقال محمود الألوسي في تفسيره روح المعاني (١) : المراد من السماء جهة العلو .

ويرى محمود الألوسي : أن من الثانية بيانية وجوّز أن تكون تبعيضية وأن تكون بدلا من الأولى .

أقول وبالله التوفيق : سواء جعلنا من للتبعيض أو البيان أو البدل، فالأمر واضح من سياق الآية وما فيها من امتنان على العباد بهذه الرحمة، ولا داعي للإطالة في الخلافات النحوية إذا لم تكن مبنية على تقدير محذوف يزيد المعنى للفهم إذا كانت فيه صعوبة . والله أعلم .

وأنتقل إلى النقطة الأخرى من هذه الآية التي هي : إحياء الأرض وبث الدواب فيها ، قوله تعالى : ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾ (٢) الآية قد قدمت الكلام على جري الفلك وما في ذلك من المنافع وإنزال المطر وما استنتجه العلماء من أحكام فيما مر من الآية والعجائب الكامنة في خلق هذا الكون .

والآن نتكلم على كيفية إحياء الأرض بعد المطر وبث الدواب وما هي هذه الدواب من خلال ما تمليه الآية الكريمة .

قال الفخر الرازي (٣) : أعلم أن هذه الحياة من جهات أحداها ظهور النبات الذي هو الكلأ والعشب وما شاكلهما مما لولاه لما عاشت دواب الأرض .

---

(١) روح المعاني : ٢/٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٤ .

(٣) الفخر الرازي ٢٢٤/٤ .

وثانيها : أنه لولاه لما حصلت الأقوات للعباد.

وثالثها : أنه تعالى ينبت كل شيء بقدر الحاجة لأنه تعالى ضمن أرزاق الحيوانات بقوله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ .

ورابعها : أنه يوجد فيه من الألوان والطعم والروح ما يصلح لكل الدواب [1] وما يصلح للملابس لأن ذلك كله مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

وخامسها : أنه يحصل للأرض بسبب النبات حسن ونضرة، ورونق فذلك هو : الحياة ، وصفه سبحانه وتعالى ذلك بالأحياء بعد الموت مجازا لأن الحياة لا تصح إلا على من يدرك ويصح أن يعلم . وكذلك الموت إلا أن الجسم إذا صار حياً حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء والنشو، والنماء، فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء وهذا من فصيح الكلام الذي على اختصاره يجمع المعاني الكثيرة .

أقول وبالله التوفيق : لاشك أن احياء الأرض بهذه الكيفية يدل على الصانع دلالة لا شك بعدها لأن نفس الزرع لا يقدر أحد على إخراجه ولا يعرف أحد المدة التي يخرج عليها ولا القدر الذي يخرج به من الأرض وكذلك الحجم الذي يخرج به هذا بالإضافة إلى اختلاف الألوان والطعم، والحجم، والرطوبة، واليبوسة، والنعومة إلى غير ذلك [2] مما لا يحصيه العادون .

ومع أنه سبحانه وتعالى سخر لنا الأرض تنبت هذه الأشياء كذلك سخر لنا ما عليها من أنعام فيها مطاعم ومآكل ومنها جمال ومراكب ،وأثاث، وملابس .

---

(١) المصدر السابق : ٢٤/٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٦٤/٢ .

ويرى ابن جرير أن هذا هو : معنى ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ كما يرى أن احياء الأرض عمارتها لأن موتها خرابها ودثور عمارتها، وإنقطاع نباتها الذي هو : للعباد أقوات وللأنام أرزاق[1] .

وقال محمود الألوسي : في قوله : ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ قال بتهييج قواها النامية وإظهار ما أودع فيها من أنواع النبات والأزهار والأشجار ﴿بعد موتها﴾ وعدم ظهور ذلك فيها لاستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها .

أقول وبالله التوفيق هذه الأشياء كلها خارقة للعادة دالة على قدرة الله تعالى جعلنا الله من المنتفعين بها وبأسلوب هذا الذكر [2] الحكيم الواقفين عند أوامره وزواجره ـــ وانتقل إلى النقطة الأخرى ـــ بث الدواب وتصريف الرياح كما أملت الآية ، قوله تعالى : ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ .

البث : معناه : فرق وبسط .

والدابة : تجمع الحيوان كله .

قال الفخر الرازي في الكلام على هذه الفقرة من الآية ﴿بث فيها من كل دابة﴾ نظيره جمع الآيات الدالة على خلق الإنسان [3] وسائر الحيوانات لقوله تعالى : ﴿وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء﴾ .

قال محمود شكري الألوسي :[4] (بث فيها من كل دابة) عطف إما على (أنزل) والجامع كون كل منهما آية مستقلة لوحدانيته تعالى وهو : الغرض المسوق له الكلام مع الاشتراك في الفاعل، و (أحيا) من تتمة الأول كأن

---

(١) روح المعاني : ٣٢/٢ .

(٢) جواهر الحسان في تفسير القرآن : ١٢٦/١ .

(٣) الفخر الرازي : ٦٤/٤ .

(٤) تفسير الألوسي : ٣٢/٢ .

الاستدلال بالإنزال المسبب عنه الاحياء فلا يكون الفصل به مانعا للعطف، أما على أحيا، فتدخل تحت فاء السببية، وسببية إنزال الماء للبث باعتبار أن الماء سبب حياة المواشي والدواب .

والبث فرع الحياة ولا يحتاج إلى تقدير الضمير للربط لاغناء فاء السببية عنه في المشهور، وقيل يحتاج إلى تقدير به، أي : بالماء (ليشعر بارتباطه) (بأنزل) استقلال كأحيا، وفاء السببية لا تكفي في ذلك إذ يجوز أن يكون السبب مجموعهما وحديث أن المجرور إنما يحذف أن جر الموصول بمثله اكثري لا كلي — ومن بيانية على التقدير الأول على الصحيح والمراد من كل دابة ، كل نوع من الدواب .

ويرى الفخر أن معنى بثها : تكثيرها بالتوالد — والتولد، فالاستدلال تكثير كل نوع مما يدب على الأرض وعدم انحصاره في البعض .

وقيل تبعيضية لأن الله تعالى لم يبث إلا بعض الدواب بالنسبة لما في قدرته على أنه أثبت الزمخشري الدواب في السماء أيضاً في سورة ﴿حم عق﴾ وإذا كنت أعطيت نبذة عن البث وقلت : أن معنى بث : فرق ونشر ومنه قوله(1) : ﴿كالفراش المنبوث﴾ فإنه لابد من التعرض لمعرفة معنى (من كل دابة) .

قال ابو عبد الله القرطبي : دابة تجمع الحيوان كله وقد أخرج بعض الناس الطير وهو : مردود قال تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ فإن الطير يدب على رجليه في بعض حالاته .

قال الأعشى : (دبيب قطا البطحاء في كل منهل) وقال علقمة :

---

(1) روح المعاني : ٢/٣٢ .

صواعقها الطير هن دبيب . قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : [1]
قوله : ﴿بث فيها﴾ فرق فيها من قول القائل (بث الأمير سراياه) ، يعني : فرق، والهاء والألف في قوله (فيها) عائدتان على الأرض ، والدابة الفاعلة من قول القائل : (دبت الدابة تدب دبيباً فهي دابة والدابة اسم لكل ذي روح كان غير طائر، بجناحيه، لدبيبه على الأرض) .

أقول وبالله التوفيق : الطير وإن كان يطير فإن مصيره ومرجعه ومسكنه وقوته في الأرض فلا يخرجه الطيران بعض الأوقات من اطلاق الدابة عليه كما أشار له القرطبي وهو الصحيح الذي لا ينبغي العدول عنه والله أعلم .

واخراج الطبري له هنا من لفظ الدابة لطيرانه نظرا لقوله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ ، فاقتضى العطف المغايرة عنده مع قوله ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وقد قدمت هذا النص قريبا مستدلا به القرطبي[2] على أن الطير داخل في لفظ الدابة وظاهر هذه الآية العموم ومعناها الخصوص لأن كثيراً من الدواب هلك قبل أن يرزق ، وقيل عامة في كل دابة، وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رزقت روحها، وخلص القرطبي هنا إلى أن الدابة كل ما يدب وحقيقة الرزق كل ما يتغذى به الحي ويكون فيه بقاء روحه وبناء جسده، والمراد عندي هنا أن الدابة داخل فيها الطير والرزق يشمل الروح والله تعالى أعلم بمراده .

وبعد أن رأينا ما رأينا من أقوال العلماء في الفقرات التي مرت آنفا ننتقل إلى الفقرة الأخيرة، وهي : تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض من الآيات العظام الدالة على قدرة الله تعالى في [3] تصريف

---

(١) تفسير القرطبي : ١٩٦/٢ .

(٢) تفسير القرطبي : ٦/٩ .

(٣) الفخر الرازي : ٢٢٦/٢ .

الرياح وذلك أنها مخلوقة على وجه يقبل التصريف وهو : الرقة واللطافة، ثم أنه سبحانه وتعالى يصرفها على وجه يقع به النفع العظيم للإنسان والحيوان والنبات .

قال الفخر الرازي في تعداده لهذا النفع : وذلك من وجوه أحدها : أنها مادة النفس الذي لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات .

وقيل فيه أن كل ما كانت الحاجة إليه أشد كان وجدانه أسهل، ولما كان احتياج الإنسان إلى الهواء أعظم الحاجات حتى لو انقطع عنه لحظة لمات لا جرم كان وجدانه أسهل من وجدان كل شيء .

وبعد الهواء الماء : فإن الالات المهيأة لجذبه حاضرة ابدا، وبعد أدلة كثيرة أثبت الفخر أن كل ما كان الاحتياج إليه أشد كان وجدانه[2] أسهل وكل ما كان الاحتياج اليه أقل كان وجدانه أصعب ، وماذاك إلا رحمة منه على العباد . وتصريف الرياح ارسالها عقيمة وملقحة وصرا ونصرا، وهلاكا وحارة وباردة، ولينة وعاصفة، وقيل تصريفها ــ ارسالها جنوبا وشمالا ودبرا، وصبا ونكباء، وهي التي تأتي بين مهبين، وقيل تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها والصغار كذلك .

أقول وبالله التوفيق : تصريفها صالح لهذه الأمور كلها لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يصرفها من الجنوب للشمال ومن الشرق للغرب وكذلك هو الذي يرسلها للبواخر بقدر الحاجة والإنسان والدواب فلا غنى لشيء مخلوق عنها وهي إذا اشتدت ضرت وإذا ضعفت ضرت .

والقدر المختار هو الذي يأتي به العزيز الجبار، وقد جاءت في القرآن مفردة ومجموعة [1] وقد تعرض العلماء لكيفية ذلك الافراد والجمع وبالأخص

---

(١) القرطبي : ١٩٦/٢ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير : ١٦٨/١ ــ ١٦٩ .

القراء الحافظ .

فالحافظ ابن كثير قرأ الرياح على الجمع في خمسة مواضع : ههنا، أي : في هذه الآية رقم (١٦٤) من سورة البقرة، وفي الحجر قوله تعالى : ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ وفي الكهف آية (٢٦) ﴿تذروه الرياح﴾ وفي الروم : آية (٤٦) ﴿الرياح﴾ وفي الجاثية آية (٤) ﴿وتصريف الرياح﴾ وقرأ باقي القرآن الريح . وقرأ ابو جعفر الرياح في خمسة عشر موضعا وتابعه نافع إلا في السبحان — ورياح سليمان (الأنبياء) ٨١ .

وثمرة الخلاف أن من جمع فكل ريح تساوي أختها في الدلالة على التوحيد والنفع ومن وحد أراد الجنس لأن اسم الجنس يدل على القليل والكثير [١] ومن جمع فلأختلاف الجهات التي تهب منها الرياح ومن جمع مع الرحمة ووحد مع العذاب فإنه فعل ذلك اعتبارا بالأغلب في القرآن .

والرياح جمع ، قال أبو علي[٢]: الريح اسم على فعل والعين منه واوا انقلبت في الواحد الكسرة ياء فإنه في الجمع القليل أرواح وذلك لأنه لا شيء فيه يوجب الاعلال . ألا ترى أن سكون الراء لا يوجب الأعلال كالواو في قوم — وقول — وفي الجمع الكثير — ورياح انقلبت الواو ياء للكسرة التي قبلها نحو : ديمة وديم — وحيلة وحيل .

قال ابن الانباري : إنما سميت الريح ريحا لأن الغالب عليها في هبوبها المجيء بالروح والراحة، وانقطاع هبوبها يكسب الكرب والغم فهي مأخوذة من الروح[٣]، والدليل على أن أصلها الواو قولهم في الجمع أرواح .

---

(١) زاد المسير في علم التفسير : ١٦٩/١ ط الأولى .

(٢) تفسير القمر الرازي : ٢٢٧/٤ .

(٣) تفسير الكشاف : ٢٤٢/١ .

وعلى أي حال تصريف الرياح في مهابها آية عظيمة لمن تفكر أو تدبر عظم الرياح وخفتها وقوتها مع ذلك فلا يتحكم في مثل هذا سوى الله الواحد القهار .

قال أبو حيان في البحر [1] : وقد تكلموا في أنواع الريح واشتقاق أسمائها وفي طبائعها وما جاء فيها من الآثار وفيما قيل فيها من الشعر وليس ذلك من غرضنا .

والريح جسم لطيف شفاف غير مرئيٍ ومن آياته ما جعل الله فيه من القوة التي تقلع الأشجار وتعفي الآثار وتهدم الديار وتهلك الكفار، ومع هذا فوائدها لا تحصى منها تربية الزرع وتنمية واشتداده بها، وسوق السحاب إلى البلد الماحل .

وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب إلا في يونس في قوله تعالى : ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ وقد ورد في الحديث : «اللهم أجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» . قال ابن عطية : لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد وريح الرحمة لينة متقطعة فلذلك هي رياح وهو معنى ينشر وأفردت مع الفلك لأن ريح اجراء السفن إنما هي واحدة متصلة ثم وصفت بالطيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب .

أقول وبالله التوفيق : قد قدمت قريباً أن من قرأ التوحيد اراد الجنس وهنا نضيف أنها كقراءة الجمع، والرياح في موضع رفع فيكون التصريف مصدراً مضافاً للفاعل أي : وتصريف الرياح السحاب أو غيره مما لها فيه ـــ تأثير بإذن الله ويحتمل أن يكون في موضع نصب فيكون المصدر في المعنى

---

(١) البحر المحيط : ٢٦٧/١ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان : ٢٦٧/١، زاد المسير في علم التفسير : ١٦٩/١ .

(٣) تفسير الفخر الرازي : ٢٢٧/٤ .

مضافا إلى الفاعل وفي اللفظ مضافا إلى المفعول، أي : وتصريف الله الرياح .

قال القرطبي: الرياح[1]جمع ريح سُميت به لأنها تأتي بالروح غالبا وروى أبـو داود عن أبي هريـرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقــول : «الــريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا أريتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها»[2] .

وروى عن النبــي ﷺ أنــه قال : «لا تسبــوا الــريح فإنها من نفس الرحمن» . والمعنى : أن الله تعالى جعل فيها التفريج والتنفيس والترويح .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنـه قال : «نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور » ويعترض ابن جرير على من يرى أن معنى (تصريف الرياح) أنها تأتي جنوبا وشمالا وقبولا ودبــورا، كما قدمنا .

ومـن يرى هذا المعنى يقول : وذلك تصريفها ثم يقول ابن جرير : وهذه الصفة التي وصف الرياح بها صفة تصرفها لا صفة تصريفهــا لأن تصريفها تصريف الله لها ، وتصرفها : اختلاف هبوبها وقد يجوز أن يكون معنى قوله : ﴿ وتصريف الرياح﴾ تصريف الله هبوب الرياح باختــلاف مهابها .

أقول وبالله التوفيق : كل هذه المعاني قد قدمت أنه واقع ولا مانع منه ومتوفر في الرياح فهي تهب من جميع الجهات وتأتي حارة وباردة[3] ورحمة وعذابا فكل المعاني موجودة فيها والله أعلم بمراده .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٩٧/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند وابن ماجه عن أبي هريرة وقال المناوي : أنه صحيح، ورواه الشافعي في مسنده ص (٤٧) باسناد صحيح . مشكات المصابيح : ٢٠/١ .

(٣) ابن جرير الطبري ٦٤/٢ ـــ ٦٥ .

وأنتقل إلى النقطة الأخيرة من الآية الكريمة، قوله تعالى : ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ .

السحاب : جمع سحابة ، يدل على ذلك قوله : ﴿وينشيء السحاب الثقال﴾ فوحد المسخر وذكره كنخلة — ونخل وتمرة وتمر — وإنما قيل للسحاب سحاب لجر بعضه وسحبه اياه من قول القائل : مر فلان يجر ذيله . يعني : يسحبه [1].

وقيل : سمي السحاب سحابا لانسحابه في الهواء، ومعنى التسخير : التذليل . وإنما سمي تسخيراً لأوجه : أحدها : أن طبع الماء ثقيل يقتضي النزول فكان بقاؤه في جو الهواء على خلاف الطبع فلابد من قاهر يقهره على ذلك فلذلك سماه بالمسخر .

الثاني : أن هذا السحاب لو دام لعظم ضرره من حيث انه يستر ضوء الشمس، وبتراكم الأمطار يغمر الماء الأرض فلا يصلح حرث ولا نبات ، ولو أنقطع لعظم ضرره أيضاً لأن ذلك يؤدي إلى القحط وقلة العشب فكان تقديره بالمقدار المعلوم، هو المصلحة .

قال جمال الدين في كتابه[2] :زاد المسير : في الكلام على الآية وهي قوله : ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾، المسخر : المذلل، والآية فيه من أربعة أوجه ، ابتداء تكوينه ، وإنتهاء تلاشيه، وقيامه بلاد عامة ولا علاقة ، وإرساله إلي حيث شاء الله .

والمسخر بين السماء والأرض صفة — للسحاب — باعتبار لفظه، وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع[3] كقوله : ﴿سحابا ثقالا﴾ ومعنى تسخيره : أنه

---

(١) ابن جرير الطبري : ٦٤/٢ — ٦٥ .

(٢) الفخر الرازي : ٢٢٨/٤ .

(٣) زاد المسير في علم التفسير : ١٦٩/١ .

لا ينزل ولا يزول مع أن الطبع يقتضي صعوده ان كان لطيفا وهبوطه ان كان كثيفا .

وقيل : الظرف مستقر وقع حالاً من ضمير المسخر ومتعلقه محذوف، أي : المسخر للرياح حيث تقلبه في الجو بمشيئة الله تعالى وتعقيب تصريف الرياح بالسحاب لأنه كالمعلول للرياح كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وهو الذي يرسل الرياح فتثير سحابا﴾ ولأن في جعله ختم المتعاطفات مراعاة في الجملة لما بدأ به منها لأنه أرضي سماوي ينتظم بدء الكلام وختمه ثم قال الألوسي [1] : وبما ذكرنا علم وجه الترتيب الخارجي للأشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة في كونها آية ولو روعي الترتيب الخارجي لربما توهم كون المجموع المرتب بعضه على بعض آية واحدة وختم الكلام بقوله : ولا يخفى أنه يُبعد هذا التوهم ظاهر قوله تعالى : ﴿لآيات﴾ اسم أن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتعظيم كماً وكيفاً أي : آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاصه بالألوهية سبحانه قوله : ﴿لقوم يعقلون﴾ أي : يتفكرون، فالعقل مجاز عن التفكير الذي هو ثمرته .

أقول وبالله التوفيق : من تأمل في الآيات التي مرت وشرحها وما قاله العلماء فيها مما تيسر وجد كلا منها مشتملا على وجوه كثيرة من الدلائل على وجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به . ومجمل القول في ذلك أن كل واحد من هذه الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه متتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضي ذاته وجوده فضلا عن وجوده على النمط الكذائي فإذن لابد له من موجد لامتناع وجود الممكن بلا موجد قادر إن شاء

---

(١) تفسير روح المعاني : ٣٣/٢ .

فعل وإن شاء ترك، حكيم عليم بحقائق الأشياء وما فيها من المفاسد والمصالح يوجده حسبما يستدعيه علمه بما فيه من المصلحة وتقتضيه مشيئته

وبهذه الخاتمة عن حكمته سبحانه وتعالى وفضله نختم الآيات الأرضية والسماوية ونكون قد أنهيت الجزء الأول من هذا الكتاب المبارك ويليه الجزء الثاني وأوله الباب الأول في إحلال المعرفة والنظر محل التقليد والعرف الخاطيء .

المراجـــع العامـة

المراجع العامة

١ ــ تفسير الطبري	أبو جعفر محمد بن جرير
٢ ــ تفسير القرطبي	محمد بن أحمد القرطبي
٣ ــ تفسير الفخر الرازي	الإمام الفخر الرازي
٤ ــ تفسير ابن كثير	إسماعيل بن عمر بن كثير
٥ ــ تفسير الفتح القدير	الإمام الشوكاني
٦ ــ تفسير البحر المحيط	أبو حيان
٧ ــ تفسير الكشاف	جار الله أبو محمود
٨ ــ تفسير المنار	الشيخ محمد عبده
٩ ــ تفسير الصاوي	محمد الصاوي
١٠ ــ زاد المسير في علم التفسير	أبو الفرج جمال الدين
١١ ــ تفسير القرآن الكريم	الإمام النسفي
١٢ ــ تفسير القرآن	أحمد مصطفى المراغي
١٣ ــ الفتوحات الالهية	سليمان بن عمر الجمل
١٤ ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور	عبد الرحمن أبي بكر السيوطي
١٥ ــ تفسير القرآن الكريم	محمود محمد حمزة
١٦ ــ تفسير روح المعاني	للشيخ إسماعيل الألوسي
١٧ ــ محاسن التأويل	محمد جمال الدين
١٨ ــ فتح البيان في مقاصد القرآن	صديق حسن خان
١٩ ــ التسهيل لعلوم التنزيل	محمد بن أحمد بن جزي الكلبي
٢٠ ــ تفسير القرآن المشتمل على عجائب الأكوان	الشيخ الطنطاوي جوهري
٢١ ــ في ظلال القرآن	سيد قطب
٢٢ ــ المحرر الوجيز في تحرير الكتاب العزيز	عبد الحق بن عطية

٢٣ ــ الجواهر الحسان في تفسير القرآن	عبد الرحمن الثعالبي
٢٤ ــ معاني القرآن	يحيى بن زياد الفراء
٢٥ ــ احكام القرآن	محمد بن ادريس الشافعي
٢٦ ــ احكام القرآن	أبو بكر الجصاص
٢٧ ــ مفردات القرآن	الراغب الاصفهاني
٢٨ ــ لباب التأويل في معاني التنزيل	علاء الدين علي بن محمد
٢٩ ــ البرهان في علوم القرآن	محمد بن عبد الله الزركشي
٣٠ ــ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	محمد الأمين الشنقيطي
٣١ ــ الجامع المسند الصحيح	محمد بن إسماعيل البخاري
٣٢ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري	الإمام ابن حجر العسقلاني
٣٣ ــ الجامع الصحيح	مسلم بن الحجاج القشيري
٣٤ ــ مكمل إكمال الأكمال شرح صحيح مسلم	محمد محمد يوسف السنوسي
٣٥ ــ النووي شرح صحيح مسلم	الإمام النووي
٣٦ ــ الموطأ	الإمام مالك
٣٧ ــ المنتقى شرح الموطأ	سليمان بن خلف الباجي
٣٨ ــ سنن النسائي	أحمد بن شعيب بن علي
٣٩ ــ سنن ابن ماجه	عبد الله أحمد يزيد القزويني
٤٠ ــ سنن الدارقطني	علي بن محمد الدارقطني
٤١ ــ جامع الترمذي	أبو عيسى الترمذي
٤٢ ــ تحفة الأحوذي	المباركفوري
٤٣ ــ السنن الكبرى	أبو بكر أحمد بن الحسين
٤٤ ــ السنن	أبو داود
٤٥ ــ المسند	الإمام أحمد بن حنبل
٤٦ ــ الفتح الرباني	أحمد بن عبد الرحمن البنا
٤٧ ــ مجمع الزوائد	الهيثمي

٤٨ ــ صحيح ابن خزيمة	محمد بن اسحاق بن خزيمة أبو بكر
٤٩ ــ مسند الطيالسي	علي بن عمر أحمد بن مهدي
٥٠ ــ المصنف	عبد الرزاق
٥١ ــ نيل الأوطار	الشوكاني
٥٢ ــ شرح السنة	البغوي
٥٣ ــ المستدرك علي الصحيحين	محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم
٥٤ ــ بلوغ المرام بشرح سبل السلام	الصنعاني
٥٥ ــ سبل الهدى والرشاد في هد خير العباد	محمد يوسف الصالحي
٥٦ ــ تلخيص الحبير في تخريج احاديث الرافعي لكبير	ابن حجر العسقلاني
٥٧ ــ نصب الراية في تخريج احاديث الهداية	الإمام الزيلعي
٥٨ ــ توضيح الأفكار	الصنعاني
٥٩ ــ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل	عبد الحق اللكنوي
٦٠ ــ فيض القدير شرح الجامع الصغير	عبد الرؤف المناوي
٦١ ــ رياض الصالحين	الإمام النووي
٦٢ ــ المغني بهامش الشرح الكبير	ابن قدامة
٦٣ ــ تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق	عثمان بن علي الزيلعي
٦٤ ــ حاشية ابن عابدين	محمد امين المعروف بابن عابدين
٦٥ ــ الهداية بهامش فتح القدير	كمال الدين محمد عبد الواحد
٦٦ ــ كتاب الوقف وبيان احكامه	الشيخ أحمد بن إبراهيم
٦٧ ــ بدائع الصنائع	علاء الدين أبي بكر
٦٨ ــ المبسوط	السرخسي
٦٩ ــ مواهب الجليل شرح مختصر خليل	محمد بن محمد عبد الرحمن المغربي
٧٠ ــ الخرشي شرح خليل	الخرشي
٧١ ــ الجواهر المضيئة	محيي الدين أبي محمد عبد القادر
٧٢ ــ الحطاب شرح مختصر خليل	محمد بن محمد الحطاب

٧٣ ــ البرهان في أصول الفقه	الجويني
٧٤ ــ اعلام الموقعين	ابن قيم الجوزية
٧٥ ــ تذكرة الحفاظ	شمس الدين أبي عبد الله الذهبي
٧٦ ــ شذرات الذهب	عبد الحي بن العماد الحنبلي
٧٧ ــ طبقات الشافعية الكبرى	تاج الدين ابي نصر عبد الوهاب
٧٨ ــ خلاصة تهذيب الكمال	صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي
٧٩ ــ معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة
٨٠ ــ الديباج المذهب في أعيان المذهب	ابن فرحون المالكي
٨١ ــ آداب الشافعي ومناقبه	الرازي
٨٢ ــ خزانة الأدب	عبد القادر البغدادي
٨٣ ــ أسد الغابة	عز الدين أبي الحسن الجوزي
٨٤ ــ صفوة الصفوة	عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
٨٥ ــ تاريخ بغداد	أحمد بن علي الخطيب
٨٦ ــ جوامع السيرة	أبو محمد علي بن حزم
٨٧ ــ الاستيعاب	أبو عمر يوسف بن عبد البر
٨٨ ــ أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذوري
٨٩ ــ كتاب الطبقات	أبو عمر خليفة الخياط
٩٠ ــ السيرة النبوية	محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار
٩١ ــ البداية والنهاية	إسماعيل بن عمر بن كثير
٩٢ ــ تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
٩٣ ــ الاعـلام	خير الدين الزركلي
٩٤ ــ تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
٩٥ ــ اخبار القضاة	محمد بن خلف بن حيان
٩٦ ــ النجوم الزاهرة	جمال الدين أبي المحاسن
٩٧ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان	أبو محمد عبد الله سعيد علي

٩٨ ـ وفياة الأعيان	أحمد بن محمد بن خلكان
٩٩ ـ معرفة القراء الكبار	شمس الدين أبي عبد الله الذهبي
١٠٠ ـ تحفة الاشراف	جمال الدين أبي الحجاج
١٠١ ـ تاريخ الإسلام	الحافظ الذهبي
١٠٢ ـ مفتاح دار السعادة	محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه
١٠٣ ـ النور المبين في قواعد الدين	ابن جوزي
١٠٤ ـ تقريب الوصول إلى علم الأصول	ابن جوزي
١٠٥ ـ انباء الرواة على انباه النحاة	جمال الدين أبي الحسين
١٠٦ ـ أضواء على الإسلام	محمود أحمد مهدي
١٠٧ ـ العقائد الإسلامية	السيد سابق
١٠٨ ـ عظمة الإسلام	أحمد عطية
١٠٩ ـ سماحة الإسلام	د. العرجون رضي الله عنه
١١٠ ـ كتاب الخراج	أبو يوسف
١١١ ـ مع الله دراسات في الدعوة والدعاة	محمد الغزالي
١١٢ ـ علم الاجتماع	عبد الرحمن النحلاوي
١١٣ ـ التفكير فريضة إسلامية	محمود العقاد
١١٤ ـ المستصفى	الإمام الغزالي
١١٥ ـ الباعث الحثيث في علوم الحديث	ابن كثير
١١٦ ـ نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر	ابن حجر
١١٧ ـ جامع بيان العلم وفصله	ابن عبد البر
١١٨ ـ تطور نمو الأطفال	د. إبراهيم حافظ
١١٩ ـ الفكر الإسلامي الحديث	محمد الباهي
١٢٠ ـ مشكلات نمو الأطفال	اسحاق رمزي
١٢١ ـ خلاصة علم النفس	أحمد فؤاد
١٢٢ ـ علم الاجتماع ومدارسه	د. مصطفى خشاب

١٢٣ ـ مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون
١٢٤ ـ افكار ورجال — ترجمة محمود محمود
١٢٥ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والقانونية — الندوي
١٢٦ ـ لسان العرب — ابن منظور
١٢٧ ـ الفلك الحديث — عبد اللطيف أبو الوفاء
١٢٨ ـ الفلك العام — حلمي عبد الرحمن
١٢٩ ـ الصحاح — الجوهري
١٣٠ ـ العدالة الاجتماعية — سيد قطب
١٣١ ـ بين الجاهلية والإسلام — محمد مهدي شمس الدين
١٣٢ ـ المجتمع الإنساني في ظل الإسلام — محمد أبو زهرة
١٣٣ ـ فرق الفرقان بين صفات الخالق وصفات الأكوان :
١٣٤ ـ العقيدة الإسلامية — كمال محمد عيسى
١٣٥ ـ الفوائد — ابن القيم
١٣٦ ـ كتاب الشريعة — الآجري
١٣٧ ـ كتاب النبوات — ابن تيمية
١٣٨ ـ الارشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد — الجويني
١٣٩ ـ عقيدة المسلم — محمد الغزالي
١٤٠ ـ نشر البنود على مرافي السعود — سيدي عبد الله الشنقيطي
١٤١ ـ كتاب الزهد — الإمام أحمد

فهـــرست الموضوعـــات

فهرست الموضوعات

الموضــــوع	الصفحــة
المقدمــــة	٥
تحرير العقل وخصائصه	١٥
التقليد تعريفه لغة وشرعا	٢٧
ذكر أدلة التقليد وأقسامه	٣٠
إجابة المانعين عن الشبهة الأولى من شبهه المقلدين	
الشبهة الثانية	٤٣
دعوى المقلدين أنهم ممتثلون قول الله عز وجل	
رد استدلال المقلدين بإيجاز	٦١
أثر البيئة على العقل	٧٥
أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية في تربية الإنسان	٧٩
تعريف العادة ، وأثرها	
البيئة الاجتماعية	٩٩
الإرهاب الفكري وتوضيحه بالأدلة	١٠٣
من الارهاب الفكري قصة موسى مع فرعون	
الآيات الأرضية، والخلاف في دوران الأرض	١٢٧
كيفية إحياء الأرض بالمطر، وبث الدواب، وما هي هذه الدواب	

فسح فرع إدارة المطبوعات
بمكة المكرمة
رقم ١٣٩٣/٢/م
تاريخ ١٤١٢/١١/١٥هـ